

فى وادى الغلابة

إحسان عبد القدوس

مكتبة غريب

إحسان عبد القدوس

فى وادى الغلابة

مكتبة غريب

الفصل الأول

دخل مصطفى الدسوقى إلى فناء كلية الهندسة دون أن يختلج فى كيانه أى إحساس بأنه طالب فى هذه الكلية . . ويسير بين الطلبة كأنه يقضى ساعة فراغ فى التفرج عليهم بدلا من أن يقضيها فى حديقة الحيوان متفرجا على الحيوانات . . وهو منذ البداية لم يكن مقتنعا بأن يكون طالبا فى الجامعة . . إنه ليس فى حاجة إلى أى دراسة جامعية يبنى عليها مستقبله ، يكفيه دراسة أعمال المقاولات التى يقوم بها أبوه وتحقق له الملايين . . وليس بين كليات الجامعة كلها كلية تدرس أسرار عمليات المقاولات . . إنها مهنة تعتمد على العبقرية الذاتية . . وحتى إن لم يرث عن أبيه عبقريته فيكفيه ضمانا لمستقبله أنه سيرث أمواله . . فما حاجته إلى الالتحاق بالجامعة . . ولكن أباه ظل يضغط عليه حتى أجبره على أن يكون طالبا فى كلية الهندسة . . وربما منذ أن أنجبه وهو يعده للجامعة ولكلية الهندسة بالذات . . وكان يقول له دائما أنه يجب أن يحمل صفة يقدم بها نفسه ويعيش بها بين الناس . . فقد أصبحت الصفة هى اللقب الذى يحمله الفرد . . وكانت الألقاب زمان تقسم الناس إلى . . أفندى . . وبك . . وباشا . . وصاحب مقام رفيع . . ويقاس كل فرد بلقبه . . ولكن كل هذه الألقاب قد اندثرت . . وانقلبت إلى ألقاب جديدة . . ضابط . . محام . . مهندس . . دكتور . . أديب . . صحفى . . رجل أعمال . . سياسى . . و . . و . . ولم يعد هذا اللقب يقوم على العمل الذى

يؤديه الفرد . . أى قد يحمل الفرد لقب مهندس وهو لا يعمل فى الهندسة ولكنه متفرغ لعمليات تجارية بعيدة عن الهندسة كأن يكون صاحب شركة تصدير واستيراد . . وقد يحمل لقب دكتور أى طبيب وهو لا يعمل فى الطب . . بل يعيش متفرغا للعمل فى الصحافة . . أو يحمل لقبا عسكريا . . لواء . . أميرالاى . . بكباشى . . رغم أنه ابتعد عن الجيش منذ عمر طويل وأصبح سفيرا مثلا أو مدير شركة أو أصبح وزيرا لوزارة الثقافة . . ولكن كلا منهم يظل حريصا على اللقب الذى وفرته له دراسته . . ويتفاخر به كصفة من صفاته . . فاذا أعجزه أن يجد لقبا يوفر له صفة ترضيه اغتصب لقب « أستاذ » . . لقد وصل لقب « أستاذ » إلى مستوى لقب « أفندى » القديم يتبادله الناس كمجرد تبادل الاحترام . . دون أن يحمل أى معنى للأستاذية . .

والأب كان مصمما على أن يحمل ابنه لقب مهندس . .

وقد حاول مصطفى كثيرا أن يعيش الحياة الجامعية . . وكان فى أوائل سنوات دراسته يتباهى بأن يخرج كل صباح من البيت وهو يحمل مسطرة الرسم الهندسى الطويلة العريضة . . ويحمل معها عددا من الكتب الدراسية . . ولكنه بعد أيام قليلة هفت افتخاره بنفسه كطالب جامعى . . وبدأ يضيق بالجو الجامعى كله . . إنه لا يحس بنفسه وبشخصيته كاملة وباندفاع عقليته للتحصيل إلا عندما يتردد على مكاتب الشركات التى كونها أبوه . . والتى تجمع عشرات الموظفين بينهم كثير من المهندسين . . وكلهم يرحبون بشخصيته ويحيطونها بالأهمية . . ربما لأنه ابن رضوان الدسوقى صاحب الشركة . . ولكنه وهو فى الجامعة يحس أنه فى عالم بعيد عنه . . ولا يجد شخصيته بين

الطلبة . . إنهم يعرفونه ولا يعرفون أباه . . ولكنها ليست معرفة عادية . . كأنهم يضعونه فى هذا العالم البعيد عنهم . . ولذلك فالتعارف لم يتجاوز تبادل التحية من بعيد أو تبادل عبارات عابرة دون أن تتطور أى معرفة إلى صداقة تحقق أى ارتباط أو متعة المصارحة وانطلاقات الشباب . .

وكان مصطفى قد لاحظ بعض مظاهر الحياة السياسية داخل الجامعة . . إنها حياة أوسع بكثير مما كان قد لاحظه فى المدارس الثانوية . . وهى حياة تعبر دائما عن المعارضة . . يتجمعون فى مناقشات سياسية حادة . . وقد يقوم أحدهم خطيبا . . وقد ينقلب تجمعهم إلى مظاهرة ضخمة . . وهو يسائل نفسه دائما . . لماذا يعارضون ويهاجمون ، ودائما يجيب نفسه بأن مايدفعهم إلى كل هذا الغضب هو الحرمان الذى يصل إلى السخط . . السخط على كل شىء . . ماداموا لا يملكون شيئا . . وهو نفسه قد يكون محروما من كثير ، على الأقل محروما من استقرار شخصيته وآماله التى يحددها لمستقبله . . ولكنه ليس ساخطا . . ربما لأنه يملك . . أو على الأصح لأن أباه يملك . . ولذلك فقد وجد نفسه مبتعدا عن كل مظاهر النشاط السياسى داخل الجامعة . . ووصل به التباعد إلى أنه لم يعد يواظب كل الأيام على التردد على الجامعة . . ولم يعد يتعمد النجاح فى كل امتحان . . إنه لا ينجح إلا إذا خطر على باله أن ينجح كأنه يريد أن يثبت لنفسه أنه يستطيع أن يكسب فى لعبة كوتشينة أو فى دور شطرنج . .

وليس معنى ذلك أن مصطفى لم يكن يفهم فى السياسة . . لقد كان يفهم ويستوعب بعض الأوضاع والشئون السياسية وخصوصا

ما تمس منها أوضاع أبيه . . وعلى قدر ما يمكن ان يفهمه فى سنه . . ولكن كان واضحا له أن ما يفهمه يختلف عما يفهمه أغلبية زملائه الطلبة فى الجامعة . . لذلك فهو منذ البداية ابتعد عن هذه الأغلبية حتى لا يعرض نفسه لمعارك معهم . . وهم أغلبية . .

إلى أن وجد نفسه يومها بالصدفة جالسا فى بوفيه الجامعة بين اثنين من زملائه يعرفهما ولكنهما ليسا أصدقاء . . وكان أحدهما هو محى الدين عبد السلام . . إنه أشهر طالب فى الكلية . . يمتد نشاطه إلى كل فروعها . . وهو أكثر الطلبة كلاما وأعلاهم صوتا . . وكلما وقع بمصر حدث أو مرت مناسبة من المناسبات الوطنية تجده واقفا على أعلى السلم المطل على الفناء يلقى خطابا . . وقد تمر شهور طويلة دون أن يقف كخطيب . . ولكنه دائما بين مجموعات الطلبة . . وقد لا يجتمع أربعة إلا وهو خامسهم . . وهو الذى يقود الحديث بينهم فى أى موضوع . . وقد يمكن اعتباره زعيما للطلبة . . ولكنها ليست زعامة رسمية . . أو زعامة معترفا بها . . ربما لأنه لم يعرف عنه أنه يمثل أى حزب سياسى أو ينتمى إلى أى اتجاه سياسى محدد . . لم يعرف عنه أنه شيوعى . . أو من الإخوان المسلمين . . أو وفدى . . أو ناصرى . . أو من حزب الحكومة . . أو . . أو . . إلى آخر التنظيمات السياسية والدينية . . وهو دائما يردد أنه مجرد صاحب رأى . . ورأيه ينطلق من تقدير الواقع الشعبى . . ويختلف مع كل الأحزاب والتنظيمات القائمة فى هذا التقدير للواقع الشعبى . . لذلك فإن زعامته يمكن أن تعتبر مجرد زعامة شخصية . . تتجمع كل قوتها فى شخصه . . ولكنه كان يؤكد هذه الزعامة بقدرته على اكتساب صداقة عدد هائل من الطلبة . . وهى صداقة قد لا تتجاوز التعرف ولكنها

قادرة على اجتذابهم إلى الالتفاف حوله والاستماع إليه . . وهو الآن طالب فى السنة النهائية بالكلية أى على وشك التخرج . . ولكنه لا يزال قادرا على اكتساب صداقة حتى الطلبة الجدد الداخلين إلى الكلية . . وقد حاول أن يكتسب صداقة مصطفى منذ رآه . . ولكن لم يقم بينهما سوى التعارف المقصور على تبادل التحية من بعيد . . فقد كان مصطفى يمر بمراحل الابتعاد عن الجامعة بكل ما فيها . . حتى بما فيها هذا الطالب المتزعم محى الدين عبد السلام . .

إلى أن كان هذا اليوم الذى وجد مصطفى نفسه فيه جالسا فى بوفيه الجامعة مع محى الدين عبد السلام . . وكان محى الدين عبد السلام كعادته هو الذى يتكلم . . وكان يقول :

ـ إن كل ما تتخذه الحكومة عبارة عن تنظيمات وإجراءات مظهرية لا تغير من الواقع . . تقيم مظاهر ديمقراطية ويحكمها واقع ديكتاتورى . . وتقيم مظاهر إنقاذ سياسى تسودها وتتولاها نفس العقليات التى فرضت واقع الإفلاس الاقتصادى . . وترفع الأجور والمرتبات حتى يفرح الفرد بأن يمسك فى يده خمسين جنيها بدلا من ثلاثين . . وفى الوقت نفسه ترفع الأسعار من ثلاثين إلى ستين . . كأنها كلما رفعت من مظهر ارتفاع الدخل الفردى رفعت من واقع استنزاف هذا الدخل . . أى أن الفرد الفقير كلما ارتفع دخله ازداد فقرا . .

ووجد مصطفى نفسه ينطلق مقاطعا دون تعمد كأنه كلام يدور فى عقله ولا يحس به على لسانه :

ـ أعتقد انه لم يعد فى مصر فقراء . . أن المجتمع المصرى كله أصبح له شكل جديد . . لم يعد يعيش نفس الفوارق الطبيعية التى

نسمع أنها كانت قائمة أيام زمان . . إن العامل أو الفلاح فى أدنى مستوياتها أصبح يضع قدميه فى حذاء ولا يسير وهو حاف . . وأصبح كأبناء الأغنياء يرتدى البنطلون الجينز . . ويأكل الساندويتش والبيتزا . . ولا يحتاج أن يركب الحمار لأنه يستطيع أن يشترى دراجة فى انتظار أن يكسب أكثر ليشترى موتوسيكلا وقد يصل إلى شراء سيارة . . أن العامل أو الفلاح الذى كان دخله اليومى لا يتجاوز القروش ارتفع إلى جنيهات وقد يصل دخله الشهرى إلى مئات . . لقد أصبح الشعب المصرى كله يعيش فى بحور من مليارات الدولارات . . وكل هذا ليس مجرد مظهر ولكنه واقع تعيشه مصر . .

وابتسم محيى الدين عبد السلام كأنه فرح بأن شد مصطفى إلى الكلام ولأول مرة يسمعه . . وقال وهو يدعى الهدوء كأنه أستاذ :

ــ لك حق . . إن أفراد الشعب ارتفع دخلهم إلى حد كبير . . ولكن هل ارتفع دخل الدولة ؟ . . إن المسئولين أنفسهم يعلنون أن الدولة فى حالة أقرب إلى الافلاس . . وماذا يعنى هذا ؟ . . يعنى أن مصر تجمع شعبا غنيا وتحكمها دولة فقيرة . . والواقع الذى نتمنى الوصول إليه أن تكون مصر دولة غنية لشعب غنى . . وإلا كنا نعيش مظهرا من مظاهر الغنى يتعارض مع الواقع القائم . . وهو واقع الفقر . . وقد تتمكن الدولة من الحرص على هذا المظهر سنوات ولكن فى النهاية سيضيع هذا المظهر ويلحق فقر الدولة بأفراد الشعب كله . . وتصبح أقرب إلى الواقعية . . أو واقعية دولة فقيرة وشعب فقير . .

وأحس مصطفى بصورة أبيه تقفز أمام خياله . . إن أباه رضوان الدسوقى ثرى . . ثرى جدا . . مليونير . . فى حين أن الدولة المصرية

فقيرة فعلا باعتراف قادتها . . وهو يعلم أن والده نشأ فقيرا واستطاع أن يحقق كل هذا الثراء . . ويعلم من بعض ما قرأه وسمعه عن التاريخ القديم أن دولة مصر كانت غنية جدا . . أى أن النظم التى تطور إليها المجتمع المصرى هى التى حققت ثراء أبيه كما حققت فقر الدولة . . وقال لمحيى الدين فى صوت محشرج وهو يبتلع ريقه :

ــ لا أدرى ماذا تقصد بكلامك . . ما هو العمل ؟

وقال محيى الدين وهو لا يزال فرحا باستقبال مناقشة جديدة :

ــ إنها مشكلة لا تحل إلا إذا أصبحت الدولة فى كيان واحد مع الشعب . . أى يكون واقع الدولة يمثل واقع الشعب . . ولكن دولتنا تهرب من الواقع بخداع الشعب والتعلق بالمظاهر . . إنها كالرجل الغنى الذى أفلس ولكنه لا يزال يصر على أن يعيش مظاهر الغنى فيضطر إلى الاستدانة بعد أن يرهن كل أملاكه لدى الدائن . . حتى لو وجد نفسه يرهن كل أولاده . . ليكونوا خدما له . . سدادا للديون . . فى حين أنه لو كان قد عاش الفقر لاضطر أن يجهد نفسه حتى يعود إلى الثراء . . أى أنه مادامت الدولة المصرية فقيرة فيجب أن يعيش الشعب هذا الفقر . . حتى لو عاد أفراده يعيشون حفاة الأقدام ويتمنون ركوب الحمار ولايعرفون شيئا عن البنطلونات الجينز وزجاجات الكوكاكولا . . أى أن يرتبط الشعب بواقع الدولة وترتبط الدولة بواقع الشعب . . وهذه الحكومة أو كل نظام الحكم القائم إما أن يطور نفسه إلى أن يعيش الواقع . . وإما يجب أن نبحث عن نظام آخر . . ولا يمكن ان يحدث أى تطور إلا إذا تكلمنا نحن . . تكلمنا كثيرا . .

وسكت مصطفى دون أن يسكت الكلام من حوله . .

وكان الجالسون فى البوفيه حول محيى الدين عبد السلام يزدادون عددا . . أصبحوا ستة . . ثم عشرة . . ثم أكثر من عشرة . . وهلت عليهم نهى . . وهلل كل الجالسين لها وهى تهلل معهم . . وطافت بهم تصافحهم واحدا بعد الآخر وهى تمنح كل واحد منهم كلمة وضحكة . . إنها تضج بالحيوية وانطلاق السخاء النفسى . . إلى أن وصلت إلى مصطفى ومدت يدها تصافحه وهى تضحك ضحكة كبيرة قائلة :

ـ ماالذى جمع المليونير بالغلابة ؟؟

وضحك معها الكثيرون كأنهم يفرجون عن شماتتهم فيه . . واكتفى مصطفى بأن صافحها وهو جالس فى مكانه ولم يعلق بكلمة . . وانطلق محيى الدين قائلا كأنه حريص على التخفيف عن مصطفى حتى لا يهرب منه :

ـ كلنا فى حالة واحدة تجمعنا حكومة واحدة وتثير فينا إحساسا واحدا . . وهو إحساس السخط . . وأنا أعلم أن الأغنياء لا يقلون سخطا عن الفقراء على الحكومة . . لأنها ليست حكومة الأغنياء ولا الفقراء . . إنها حكومة مظهرية ليس لها واقع . . إنها حكومة تدعى المظهر الاشتراكى كأنها فى خدمة الفقراء . . وتدعى مظهر الرأسمالية كأنها فى خدمة الأغنياء ،ولم تحقق سوى سخط عام يشمل الأغنياء والفقراء . .

وكانت نهى قد جلست بعيدا عن مصطفى وإن كانت جلستها فى مواجهته . . وكان يرفع عينيه إليها فى نظرات متباعدة . . إنه رآها قبل ذلك بين طلبة الجامعة . . لم يذهب إلى الجامعة فى أى يوم إلا ورآها . . وربما لفت نظره إليها أنها كانت كثيرة الحركة . . ودائما

ملعلعة . . ودائما مشغولة فى حوار مع زميلات أو زملاء . . ودائما ينطق صوتها ضاحكا أو محتدا ثائرا . . ولكنه لم يهتم بها أبدا إلا كمجرد شخصية من بين الطلبة تمر أمام عينيه . . فهو لم يكن يهتم بأى طالبة أو طالب أو يترك اصطدام أحد منهم بنظرة عينيه أى أثر . . وخصوصا أن نهى ليست جميلة حتى يشده جمالها . . ولو لمجرد متعة المشاهدة . . وإن كانت أيضا ليست منفرة . . إن شكلها كأنه كله محصول عادى . . كشكل كيزان الذرة . . لا تبهرك ولا تشدك إلا إذا كنت فى منتهى الجوع . . وهو لم يحس أبدا بالجوع نحو أى فتاة . .

وكان وهو يتطلع إليها يصادف أحيانا عينيها تنظران إليه وبين شفتيها ابتسامة ليست ساخرة كضحكتها التى قذفته بها وهى تصافحه . . ولكنها ابتسامة هادئة كأنها ترحب به . . ولكن ضحكتها الساخرة لاتزال ترن فى أذنيه . . وكلماتها الأكثر سخرية التى استقبلته بها تسيطر على فكره . . ماذا جمع صاحب الملايين بالغلابة . .

وبعد فترة قصيرة قامت نهى مبتعدة عن جلسة البوفيه . . وابتسامتها تشد شفتيها حتى آخرها . . كأنها كانت قد ظهرت بينهم لمجرد الاطمئنان عليهم وعلى حرارة المناقشات التى تجرى دون أن تشترك فيها . .

وتردد مصطفى لحظة وهو يتبعها بعينيه ثم قام كأنه انتهى إلى قرار . . وسار لاحقا بها . . ومحيى الدين عبد السلام يطارده بعينيه كأنه يناديه أن يعود إليه . .

واقترب مصطفى من نهى وهى تسير فى فناء الجامعة بخطواتها السريعة المهتزة وقال لها فورا :

ـ يا آنسة أنا لست مليونيرا . .

ورفعت إليه ابتسامتها وقالت فى بساطة كأنها لم تفاجأ به :

ـ على الأقل ابن مليونير . . وتعيش حياة أصحاب الملايين . . وتعيش أفكارهم ودوافعهم التى تختلف عن أفكار ودوافع الغلابة . . لذلك لم أكن أراك بين الغلابة ودهشت عندما رأيتك بينهم . .

وقال مصطفى بعد أن زفر تنهيدة كأنه يعترف بما يعانيه :

ـ هناك فرق بين صاحب الملايين وابنه . . فمتعة الحياة والإحساس بها ليست فيما يملكه الإنسان بين يديه ولكن فيما يسعى إليه ويحققه . . وأبى سعيد فى حياته لأنه سعى إلى الثراء وحققه ولا يزال مشغولا بما حققه ويحاول أن يحقق المزيد . . ولكنى أنا لا أسعى إلى شىء . . ولا مشغول بشىء . . إنى ضحية أبى الذى جعلنى عاجزا عن أن أسعى إلى شىء أحتاج إليه . . بأن تركنى لا أحتاج إلى شىء . . وأنا أعتبر نفسى عاطلا أبحث عن عمل . . أى عمل . . إن العمل مهما كان نوعه هو الذى يقيم ويحدد الشخصية . . وأنا ما زلت أبحث عن شخصية . . ولا يمكن أن اكتسب شخصية المليونير لمجرد أن أبى من أصحاب الملايين . .

وقالت نهى والدهشة فى عينيها :

ـ كلام عجيب لم أكن أنتظره منك . .

وقال فى صوت ضعيف كأنه يتكلم مع نفسه :

ـ قارنى بينى وبين نفسك . . فأنت لست من الغلابة حتى لو كان أبوك غلبان . . أنت ثرية بسعيك لتحقيق آمال تزخر بها نفسك . . إنك على الأقل تحسين بوضعك كطالبة فى الجامعة وتحققين

النجاح فى امتحان كل سنة . . أما أنا فإنى لا أحس بأنى طالب . . ولا أحس بأى دافع للنجاح فى أى امتحان . . إنك لست عاطلة عن العمل . . وأنا عاطل . . ولذلك فابنة الغلبان تحس بالحياة مقبلة عليها حتى وهى محرومة من أشياء . . ولا يحس بها ابن المليونير ويضيق بها وهو ليس محروما من شىء . .

وقالت نهى وهى تهز رأسها كأنها ليست مقتنعة بهذا الكلام :

ـ إن الفرق بينى وبينك هو أن الحياة تدفعنى لأن أبنى لنفسى حياة غير حياة أبى . . وأقيم لنفسى شخصية غير شخصية أمى . . أما أنت فإن أباك قد أقام لك الحياة التى تدفعك إلى الاستمرار بها . . والشخصية التى يمكن أن تغريك بالاحتفاظ بها . . ومجرد الاستمرار بهذه الحياة وهذه الشخصية يعتبر عملا ضخما يشغل كل أيامك وكل دقيقة من عمرك . .

وقال مصطفى كأنه يزداد سخطا على نفسه :

ـ إن الحرص على الاستمرار ببناء قائم لا يوفر متعة البناء الجديد . . وقد وفر أبى لنفسه متعة النجاح فى الحياة بأن أقام حياة غير حياة أبيه . . وأنا أريد أن أقيم لنفسى حياة غير حياته . . حياة خاصة بى . . وليس كل ما أتصف به فيها أنى ابن مليونير . .

وقالت نهى وهى تلفه بابتسامتها كأنها تشفق عليه :

ـ كن معنا دائما . . مع الغلابة . . فحياتنا تجعلنا دائما مشغولين بها . . ولا تترك واحدا منا عاطلا أبدا . .

وكانا قد وصلا إلى الشارع خارج الجامعة . . ونهى تتجه به إلى موقف الأتوبيس . . وقال لها باسما :

- إن الميونير يملك سيارة .. هل يمكن أن يوصلك بها إلى حيث تريدين ؟ ؟

وقالت ضاحكة :

- لا .. إن الأتوبيس أسرع .. وأنا متعجلة لأصل إلى البيت قبل أن يعود إليه الغلبان زوجى ..

وقال فى دهشة زاعقة :

- متزوجة .. إنك ما زلت طالبة ..

وقالت وضحكتها أكبر :

- لقد كان أهلى يخشون على من البوار فزوجونى لأول عريس ..

ولم يضحك وظل صامتا ينظر إليها بعينيه الممتلئتين بالدهشة .. كأنه يعيش فى مفاجأة .. إلى أن جاء الأتوبيس .. وهمس كأنها لن تسمعه :

- كل هذا الزحام ! !

وقد سمعته وردت ضاحكة :

- لقد تعودت على زحام الغلابة .. سأراك غدا ..

وتركها تحشر نفسها فى زحام الأتوبيس .. وهو يسائل نفسه .. هل يراها غدا .. وركب سيارته الصغيرة المركونة بين باقى السيارات وكأنها كلها سيارات تختبىء بعضها فى بعض خوفا من الاعتداء عليها ..

●●●

كان مصطفى قد بدأ اليوم التالى وهو يحس أنه قد شقت فى شخصيته قناة جديدة .. قناة تجرى فيها المناقشات السياسية حتى تفيض على جانبيها ، إنه لم يكن يخطر على باله أن يدخل فى مناقشات مع زملائه الطلبة .. مهما كان موضوع المناقشة وعلى الأخص الموضوعات السياسية .. لم يكن يخطر على باله أن من طبيعته أن يناقش أو يتحمل الصبر على المناقشة فى أى موضوع .. ولكن مرت به بالأمس تجربة تعرض لها دون أن يقصدها .. وهى مناقشة زميله محيى الدين عبد السلام الزعيم الجامعى المفترض وزميلته نهى .. وكانت مناقشة سياسية .. ولكنه لم يهنأ بمناقشة محيى الدين .. كان يحس أنه يؤدى واجبا ثقيلا متعبا بالتعبير عن رأيه .. ولكنه كان مرتاحا وهو يناقش نهى .. أحس معها كأنه منطلق انطلاقا طبيعيا رغم أنهما كانا مختلفين فى الرأى .. وهو فى طريقه إلى الكلية رغم أنه لم يكن من عادته أن يذهب إليها يومين متتاليين .. إنه يحس كأنه على موعد مع نهى .. لا يدرى ماذا يجذبه إلى لقائها .. نهى ليست جميلة إلى هذا الحد .. ربما لأنه يشعر بأنها تمد إحساسه وعقله بحياة تنبض بالراحة .. واتجه مباشرة إلى بوفيه الكلية .. لا أحد فيه .. ربما دفعه الحماس لشخصيته الجديدة إلى وصوله مبكرا .. إن زحام البوفيه لا يبدأ إلا بعد أن تبدأ الدروس المقررة .. وشد نفسه إلى حضور الدرس الأول .. ثم قرر أن يحضر الدرس الثانى حتى لا يرمى نفسه على البوفيه ويبدو كأنه متهافت على الجالسين فيه .. غريبة .. إنه يستطيع أن يجلس أمام الأستاذ درسين متتاليين ويستوعب كل ما يسمعه منه .. وقد كان من عادته أن يتعالى على حضور الدروس والمحاضرات حتى لا يحشر نفسه بين زحام الطلبة داخل المدرجات الدراسية .. إن أنفاسه تضيق فى هذا الزحام .. وكان قد سبق أن

حضر درسا ولم يحتمل الاستمرار فيه فقام قبل أن ينتهى الدرس وشق صفوف الطلبة وخرج من المدرج دون أن يأبه بنظرات الأستاذ التى تتابعه فى احتقار وسخط . . بل إن الطلبة أنفسهم تابعوه وهم يقذفونه بكلمات جارحة وضحكات ساخرة . . مع السلامة يا ابن الباشا . . ولكنه اليوم يحتمل الزحام . . ويحتمل الجهد الذى يبذله لتركيز أذنيه على سماع درس الأستاذ . . إنه يحس أنه إنسان آخر وشخصية جديدة . . ولم يكتسب هذه الشخصية إلا بعد أن اشترك فى نقاش سياسى مع الطلبة . .

إلى أن ذهب الى البوفيه . . ووجد زميله محى الدين عبد السلام جالسا وحوله مجموعة كبيرة من الطلبة . . ووجهه متزمت ينطلق بالسخط الثائر . . ولو أنه لم ينس أن يبتسم مرحبا عندما رأى مصطفى أمامه . . ولكن أين نهى ؟؟ إنها لم تظهر بعد ، وكان محى الدين يتكلم فى صوت يرتعش بالثورة . . لقد وصلته أخبار بأن الحكومة سترفع من ثمن رغيف العيش . . وأرغفة العيش هى التى تقوم عليها حياة الشعب كله . . فإذا ارتفع ثمن الرغيف ولم يعد الفقير يستطيع شراءه فكأننا نبيد الأغلبية الشعبية من الحياة لتصبح مقصورة على أقلية الأغنياء . . ولابد أن تدافع الأغلبية عن حياتها من اغتصاب الأقلية . أن تحمى نفسها ولو بالقوة . . بالثورة . .

وظهرت نهى . . مبتسمة ملعلعة كما رآها بالأمس . . ولم تستطع أن تصافح الجميع لكثرة عددهم . . ولكنها صافحت واحدا أو اثنين وهى تتجه نحو مصطفى لتصافحه بحرارة وبين شفتيها ابتسامة أكبر . . وقد مد لها يده فى شوق ثم شد لها مقعدا لتجلس بجانبه . . وهو يقول مبتسما كأنه يلقى نكتة :

ــ هل أخرك الأتوبيس ؟ !

وقالت ضاحكة ضحكة خافتة وسط زحام المجموعة :

ــ كنت فى المدرج . . ولو أن الأتوبيس يؤخرنى دائما حتى أنى فكرت فى أن أطالب بأن تحدد مواعيد الدراسة بموعد وصول الأتوبيسات . .

وسكتنا مستمعين إلى حديث محى الدين عبد السلام ، إنه يتحدث كأنه يلقى خطابا على الناس المتظاهرين . . ويكرر ما قاله فى خطابه كلما هل عليه طالب آخر . . واستمعت إليه نهى وهى تزداد تجهما وتتبعا لكل كلمة . . إلى أن اشتد حماسها وانطلقت مقاطعة لمحى الدين قائلة :

ــ إن الحكومة لا تستطيع أن ترفع سعر رغيف العيش إلا بعد أن تستشير ستات البيوت اللاتى يحملن مسئولية توفير الحياة للعائلات . . فإن الحكومة تمنح نفسها الحق فى تحديد وتوزيع الأجور والمرتبات . . ولذلك فهى مسئولة عن توفير مستلزمات الحياة الكاملة التى يمكن أن يوفرها الأجر أو المرتب . . ولن تستطيع أن تحمل هذه المسئولية إلا بالاتفاق مع ستات البيوت . .

وقال محى الدين عبد السلام ردا عليها :

ــ يجب على الحكومة أن تسأل ستات البيوت ورجال الـ ـت . . والحكومة لا تسأل نفسها كيف يعيش كل فرد من أفراد السعب . . ولا تحمل نفسها مسئولية إعداد مائدة لكل مصرى وتوفر له عليها العيش واللحم والأرز والملوخية . . ربما لأن أفراد الحكومة أنفسهم

موائد غذائهم . . قد يقاومون التخمة ولكنهم لا يقاومون الجوع . .

وصفق الطلبة لمحى الدين عبد السلام على كلمته . .

وتنحنح مصطفى حتى يلفت نظر محى الدين إليه ويعطيه حق الكلام ثم قال :

ـ إنى مقتنع بكل ما سمعته . . ولكن يجب الا ننسى أن الحكومة رفعت الأجور والمرتبات خلال السنوات العشر الماضية إلى عدة أضعاف . . فإذا كان الدخل قد ارتفع فيمكن أن يحتمل ارتفاع سعر رغيف العيش . .

وارتفع صوت محى الدين ردا على مصطفى وإن كان قد راعى أن يكون مهذبا حتى لا يغضبه :

ـ المفروض أن الحكومة رفعت الدخل الفردى ليستطيع الفرد أن يشترى رغيفين بدلا من رغيف واحد . . أو يستطيع أن يشترى ما ينقصه من متطلبات أخرى . . أما إذا ارتفعت الأسعار فكأن الدخل لم يرتفع . . وقد ارتفعت فعلا أسعار احتياجات كثيرة مع ارتفاع قيمة الأجور والمرتبات . . وتحمل الشعب هذا الارتفاع فى مرارة لأنه كان يستطيع أن يستغنى عن هذه الاحتياجات أو يقتصد فيها . . إذا كان يريد أن يأكل اللحم فى الأسبوع مرتين فإنه يستطيع أن يكتفى بأن يأكله يوما واحدا فى الشهر . . أما أرغفة العيش فهو لا يستطيع أن يستغنى عنه أبدا ولا حتى يوفر مما تعود أن يأكله منه . . إن العيش هو العمود الفقرى للحياة يجب أن نوفره دائما لبطن كل مخلوق . . وإذا

ارتفع سعر العمود الفقرى هذا ارتفعت معه أسعار كل مطالب الحياة . .

ولم يرد عليه مصطفى مفضلا الصمت إلى أن عاد محى الدين يقول :

ـ إننا لن نقوم بمظاهرات اليوم ولا غدا . . يجب أن ننتظر إلى أن يصدر القرار برفع ثمن رغيف العيش فعلا . . وسنتصل اليوم بكلية التجارة . . والزراعة . . والحقوق . . وبجامعة عين شمس . . وبكل من نستطيع الاتصال بهم . . حتى تعد الجامعة نفسها لمظاهرة عامة شاملة تجبر الحكومة على عدم رفع سعر الرغيف حتى لو كانت قد أصدرت قرارها به . .

واستمرت المناقشات كأنها لن تنتهى . . مناقشات ساخطة تتخللها ضحكات تخفف منها وتحرض على استمرارها . . إلى أن قامت نهى منصرفة ولحق بها مصطفى كما حدث أمس . . كأنه أصبح متعودا على اللحاق بها . . وقال لها وهو يسير بجانبها :

ـ هل يضايقك فعلا ارتفاع ثمن رغيف العيش حتى تشتركى فى الثورة التى يدعو إليها محى الدين ؟

وقالت ضاحكة :

ـ إننى من الطبقة التى يسمونها طبقة محدودى الدخل . . وهى طبقة الموظفين وحدهم لأنهم يعيشون على أجر أو دخل محدد سواء فى الواقع أم المستقبل . . أما باقى الطبقات فليس لها دخل محدد . . إنما يعيش أفرادها وهم يسعون إلى الحصول على دخل يرتفع بهم إلى منتهى الغنى أو يهوى بهم إلى منتهى الفقر . . وأنا ابنة موظف فى

الحكومة .. قد يحتمل راتبه أن يضيف قرشا على ثمن الرغيف .. ولكن هذا القرش سيضطرنا قطعا إلى إعادة تنظيم ميزانية البيت كله .. قد نعجز عن أكل المكرونة مثلا أو نختصر من صنف الفاكهة والبطيخ .. وقد يضطر والدى إلى تخفيض مصروفى اليومى من عشرة قروش إلى خمسة .. لذلك يجب أن أعلن الثورة على رفع سعر الرغيف حتى لا أحرم من المكرونة والبطيخ وحتى لا أتعرض لتخفيض مصروفى ..

وكان يستمع إليها وهو مبهور بمنطقها الجاد الذى تعرضه عليه فى بساطة وخفة دم .. إنه لم يلتق أبدا بفتاة تهتم إلى هذا الحد بجدية مشاكل الحياة .. وتتتبع بكل هذا الحماس سياسة الحكومة فى مواجهة هذه المشاكل .. ووجد نفسه يجهد عقله فى البحث عن رد عليها يقنعها به كما تحاول هى أن تقنعه .. ثم برقت عيناه كأنه وجد حلا .. وقال وكأنه مبهور بما اكتشفه :

ـ إن كل ما تحاوله الحكومة هو التخفيف من ميزانية الدعم الضخمة التى تدفعها لتوفير رغيف العيش .. ولكنها كانت مخطئة فى أن تساوى بين الفقراء والأغنياء فى هذا الدعم .. الفقير يدفع قرشا والغنى أيضا يدفع قرشا .. وإذا كانت حكومة قادرة على الاعتراف بالواقع ومواجهته فيجب أن تفرق بين من يستحق الإعانة ومن لا يستحقها .. وتعدد من قيمة ثمن رغيف العيش مع تعدد مستويات الدخل الفردى .. أى تبيع رغيفا بقرش .. ورغيفا بقرشين .. ورغيفا بخمسة قروش .. ورغيفا بعشرة .. وتترك كل فرد يشترى بما يحتمله دخله الخاص دون أن يحرم أى منهم من رغيف

العيش أو يعانى فى سبيل الحصول عليه ما لا يطيق .. إنها بذلك توفر من ميزانية الدعم مع تحقيق العدالة وتغطية احتياجات الشعب ..

وقالت نهى من خلال ابتسامة ساخرة :

ـ إنك تفكر بعقلية ابن المليونير .. وأحب أن أقول لك أنى لا أطيق أن آكل رغيفا بقرش بينما أرى أمامى من يأكل رغيفا بقرشين أو بخمسة أو عشرة كما تقول ..

وقاطعها بصوت خفيض كأنه يحادث نفسه :

ـ إننا فى بيتنا نأكل رغيفا ثمنه خمسة وعشرون قرشا نشتريه من مخبز فى جاردن سيتى يبيع العيش وقطع الجاتوه .. وهو عيش فينو ..

وصاحت من خلال ابتسامتها الساخرة :

ـ إذا كان الغلابة محرومين من العيش الفينو فيجب أن يحرم منه الأغنياء .. إننا نطالب بالمساواة .. وإذا كانت المساواة لم تتحقق حتى اليوم فى أى جانب من جوانب الحياة فعلى الأقل يجب أن نحتفظ بها بالنسبة لرغيف العيش .. ثمنه وطعمه .. إن الرغيف هو عصب الحياة ويجب أن يحس الناس كلهم بأنهم يجمعهم عصب واحد .. حتى لو كان بينهم أفراد يتسللون ويأكلون العيش الفينو .. يكفى أنهم مضطرون أن يأكلوه خفية ومختبئين عن أعين الأغلبية الغلبانة ..

وقال مصطفى بهدوء :

ـ إنه موضوع فى حاجة إلى مزيد من التفكير قبل أن نقوم بمظاهرات وثورة ونحن لا ندرى حلا للمشكلة نطالب به الحكومة ..

وقالت نهى وقد بدأت تهدأ :

ــ إن المظاهرات تدفع إلى المزيد من التفكير الرسمى والشعبى . .

وكانا قد وصلا إلى محطة الأتوبيس . . ووقفت نهى وقد تجردت ابتسامتها من كل ما كان يشوبها من معالم السخرية . . كأن مناقشة الموضوع بينها وبين مصطفى قد انتهت دون أن تترك أثرا يبعدها عنه . . وقالت فى انطلاقة حلوة صافية :

ــ هل أراك غدا ؟ ؟

وقال فى رجاء :

ــ هل تسمحين بأن أوصلك بسيارتى ؟ ؟

وقالت ضاحكة :

ــ لا تدفعنى إلى ركوب سيارتك وإلا أخذت أتعود عليها . . وأخشى إن تعودت على ركوب سيارة خاصة أن أبدأ فى الاشتياق إلى طعم العيش الفينو . .

وقفزت تلقى بنفسها داخل زحام الأتوبيس . .

الفصل الثانى

كان الخبر قد انتشر ليلتها . . خبر أن الحكومة قررت رفع سعر رغيف العيش . . ورغم أن الخبر لم ينشر إلا أن الخبازين والبقالين امتنعوا فى ذلك المساء عن بيع أرغفة الخبز التى لا تزال متبقية لديهم انتظارا لبيعها بالسعر الأعلى الذى سيفرض ابتداء من صباح الغد . . وقد سمع مصطفى هذه الأخبار وهو يتجول فى النادى الذى تعود التردد عليه كلما هل المساء . . وقد سمعها فى كلمات عابرة لا يشوبها اعتراض أو سخط . . إنما مجرد أخبار . . ربما لأنه ناد لا يجمع إلا الأغنياء . . ولا يفتح أبوابه للفقراء . . وقد أراد مصطفى أن يتأكد مما سمعه بين ضحكات النادى . . فركب سيارته واتجه بها إلى حى بولاق . . وترك السيارة فى الشارع العمومى ثم دخل ماشيا إلى حوارى الحى إلى أن صادف دكان بقال فاقترب من البائع وطلب منه شراء رغيف خبز . . وقال البائع وهو يدير عنه عينيه :

ــ آسف ياأفندى . . العيش شطب . .

وسكت مصطفى وهو يلمح حوافى أرغفة من العيش مكدسة فوق رف عال من الدكان . . أهمل البائع فى إخفائها . . إن أهالى حوارى بولاق سينامون هذه الليلة جوعى دون أن يتخموا بطونهم بالخبز . .

ولم يجادل مصطفى البائع .. وابتعد سريعا . . ورأسه يضج بموضوع واحد . . إن المظاهرات ستبدأ غدا فى الجامعة . . وخطر له

أن يتصل بمحيى الدين عبد السلام الذى يتزعم الدعوة للمظاهرات حتى يفهم منه تفاصيل ما سيتم غدا . . ولكنه لا يعرف عنوانه ولا يدرى كيف يتصل به . . وكذلك نهى . . إنه لا يملك وسيلة للاتصال بها . . ومحيى الدين ونهى هما وحدهما اللذان يمثلان بالنسبة له الجامعة . . كأنهما كل الطلبة . .

وفكر فى أن يعود إلى النادى ويجمع أصدقاءه ويناقشهم فى موضوع رفع سعر الرغيف . . لعله يستقر على رأى يريحه . . ولكن أصدقاءه لن يتأثروا أو يهتموا برفع سعر الرغيف . . كلهم مثله من أولاد الأغنياء . . ومشكلته أنه بدأ يختلف عنهم كلهم وبدأ عقله يتشتت كأنه بدأ يحمل مسئولية أولاد الفقراء . .

لماذا لا يعود إلى البيت وينتظر والده حتى يعود ويستفهم منه عما دفع الحكومة إلى رفع رغيف العيش . . إن والده يعلم دائما بكل القرارات الحكومية مسبقا قبل أن تصدر . . ولكنه يعلم أن والده يوافق مقدما أيضا على كل قرار تصدره الحكومة ليبقى على تحالفه معها الذى تقوم عليه كل مشروعاته . . التحالف مع أى حكومة . . ثم إن والده رفع سعر الرغيف على نفسه قبل أن ترفعه الحكومة . . إن العائلة تأكل رغيفا ممتازا من العيش الفينو . . ثمنه خمسة وعشرون قرشا . . وإن كانت لا تزال تمد الخدم بالعيش الشعبى الذى لا يتجاوز ثمنه قرشا واحدا . . ولن يضير والده أن يرفع ثمنه إلى قرشين . . لا إشفاقا ولكن اضطرارا لا يعجزه . . ومهما قال له والده فلن يسمع منه إلا تأييدا للحكومة وسخرية بالمعارضين والرافضين . . إنه يستطيع أن يستنتج ما سيقوله له دون أن يسمعه منه . .

ولكن لماذا يهتم هو نفسه بهذا الموضوع ويشغل نفسه به . . إن

المعركة بين الأغنياء والفقراء حول تكلفة الحياة هى معركة طبيعية مستمرة . . وهى ليست معركة حول حق المساواة . . فالمساواة لا يمكن أن تقوم على فرض نظام يساوى بين دخول كل أفراد الشعب حتى يستطيع كل فرد أن يدفع ثمن الرغيف ويدفع تكاليف الحياة . . فدخل الفرد يقوم على ما يقدمه من عمل . . ولا يمكن أن نساوى بين من يعمل ومن لا يعمل . . بل لا يمكن أن نساوى بين مجالات العمل نفسه . . كل ما يمكن أن نطالب به هو المساواة فى حرية العمل . . ووضع هذه الحرية فى مجال يعترف به القانون حتى لا تكون حرية السرقة مثلا من بين حرية العمل . . إنه يعلم أن والده بدأ الحياة فقيرا . . فى منتهى الفقر . . وأصبح مليونيرا . . فى منتهى الغنى . . كيف ؟ . . بالعمل . . فلماذا لا يطالب الغلابة من طلبة الجامعة بحرية العمل إذا كانت ليست لهم ، حتى يستطيعوا دفع ثمن رغيف العيش لو ارتفع . . إنهم لا يحسون بمسئولية العمل . . إنهم يريدون الحياة فى رخاء بلا عمل . . ويريدون أن يعيشوا على حساب الأغنياء دون أن يكدوا ويتعبوا . . وربما لو كان الأغنياء أكثر سخاء ووفروا للفقراء الرخاء فى مطالب الحياة لما فكروا فى ثورة عليهم ولا حتى فى القيام بمظاهرة . . وقد حدث هذا فعلا عندما قررت الحكومة تعيين كل خريجى الجامعة كموظفين فى الحكومة دون أن تعهد إليهم بعمل إنما لمجرد أن تدفع لهم مرتبات توفر لهم بعض مطالب الحياة لتسكتهم وتتقى سخطهم الذى ينتهى إلى ثورة . . وهو ما أدى إلى إفلاس الحكومة ، ورغم هذا فهى لا تستطيع أن تتوقف عن دفع مرتبات موظفيها الذين لا يقومون بأى عمل . . ولا تستطيع أن توقف الدعم لمطالب الحياة الشعبية الذى يكلفها غاليا . . كل ما تستطيعه هو رفع سعر رغيف العيش . . قرشا واحدا . .

تردد هذا الكلام فى عقل مصطفى . . ثم لم يلبث أن هز رأسه كأنه يطرد هذا الكلام منها . . إنه كلام ينطلق من عقلية كأنه ورثها من عقلية أبيه . . إن أباه يحصر الحياة كلها فى عمله . . ولا يخطر على بالـه أيضـا أى مسئولية خارج عمله . . ولكن لا . . إن الأغنياء والفقراء لا يفترقان كشعبين أو كدولتين أو كبلدين . . إنهما شعب واحد ودولة واحدة وبلد واحد . . ويجب أن يعيشا هذه الوحدة . . الأغنياء مسئولون عن الفقراء . . والفقراء مسئولون عن الأغنياء . . وهى ليست مسئولية دوافعها شفقة الأغنياء على الفقراء . . أو حاجة الفقراء إلى الأغنياء . . ولكن دوافعها الحرص على مصير واحد مشترك . . مصير الشعب المصرى الواحد . . والشعوب الراقية الهادئة المستقرة تعيش هذه الوحدة . . ويقبل الغنى فى استسلام أن يدفع ضرائب تصل إلى تسعين فى المائة من دخله . . ويقبل فى استسلام أن يحصل الغلبان على دخله ليوفر له مطالب الحياة ما دامت حرية العمل متوافرة له ويستطيع أن يصل إلى أعلى . . وأعلى . . كلاهما . . أى الغنى والفقير . . مطمئن إلى أنه فى دولة لها حكومة تستطيع أن تراعى حق كل منهما . .

إنه منذ أن بدأ يشترك فى اجتماعات ومناقشات طلبة الجامعة يحس بمسئولية جديدة لم تكن تخطر على إحساسه . . وهى مسئوليته عن الغلابة . . ولو أن زملاءه الذين يشترك معهم فى المناقشات ليسوا فى منتهى الفقر . . إن أغلبهم فى مستوى من الطبقة الوسطى قد يصل إلى أدناه . . ولكن ماهو الفقر . . إنه ليس مجرد عدد القروش التى تحملها فى جيبك . . ولكنه يقوم على مدى اطمئنانك إلى الاستمرار فى الحياة . . وهم ليسوا مطمئنين إلى مستقبل حياتهم . . كما هو مطمئن

إلى أنه على الأقل سيرث ملايين والده . . فهم فقراء . . وقد بدأ يحس أنه لا يساوى شيئا فى الحياة إن لم يشترك معهم فى حمل مسئولية هذا الفقر . .

ولم ينم ليلتها . . وأفكاره تتعارض بعضها مع بعض وتقلقه . .

وفى الصباح الباكر قام ملهوفا وأسرع بارتداء ملابسه كأنه يتعجل مواجهة الواقع . . وأخذ طريقه بسيارته إلى كلية الهندسة . . وعلى غير العادة وجد الفناء فى هذه الساعة المبكرة مزدحما بالطلبة . . ووجد نهى واقفة وسط الزحام كأنها جاءت إلى الجامعة تجرى على قدميها حتى لا يؤخرها الأتوبيس . . ووجد محى الدين عبد السلام واقفا يتكلم بصوت عال كأنه يلقى خطابا ، ولكنه يلقيه بصوت هادىء كأنه يعرض خطة . . وكان يقول :

ـ إن رفع الأسعار لن يقتصر على رغيف العيش . . سترفع أسعار كل مانعيش عليه وكل مافى البيت بما فيها أسعار البوتاجاز . . لماذا يرفعون الأسعار . . إنهم يرفعونها حتى يزداد غنى الأغنياء ويزداد فقر الفقراء . . وحتى يزداد الشبعانون شبعا . . ويزداد الجوعانون جوعا ونحن مستعدون أن نموت جوعا ونستشهد فى سبيل مصر ولكننا لن نترك اللصوص يمدون أيديهم إلى أعناقنا ليخنقونا . .

وصاح طالب هاتفا :

ـ كلهم لصوص . . ولن يحكمنا لصوص . .

وردد عدد قليل هذا الهتاف فى صوت ضعيف . . ورفع محى الدين يده كأنه يسكت محاولة ترديد الهتافات واستطرد قائلا :

ـ لقد اتفقت مع زملائنا الطلبة على أن نخرج من هنا ونسير

صامتين دون أن نطلق أى هتاف حتى نصل إلى مجلس الوزراء . . ونطلب أن يقابل الرئيس وفد منا . . حتى نبلغه مطالبنا وإصرارنا عليها . فإذا لم نقابله سرنا بالمظاهرة إلى ميدان عابدين وبقينا متجمعين فى مواجهة القصر لو قضينا الليل . . أو حتى ليالى . . ونحن متجمعون أمام القصر صامتين إلى أن تعدل الحكومة عن رفع الأسعار . .

وارتفع صوت صائحا :

ـ لماذا نسير صامتين . . لماذا لا نرفع أصواتنابآرائنا . . ونطالب بإسقاط الحكومة حتى نفرض عليها الاستجابة لمطالبنا . .

وقال محيى الدين :

ـ إنها دعوة للشعب كله حتى يتجمع فى مواكب تملأ كل الشوارع وهو صامت . . كأن الشعب كله فى جنازة يشيع بها حريته وحقه فى الحياة . .

وارتفع صوت آخر :

ـ وإذا هاجمنا البوليس رغم أننا نسير فى صمت . .

وقال محيى الدين وصوته العالى يصل إلى المئات :

ـ إن البوليس ينفذ أوامر . . وقد لا تصدر إليه أوامر الاعتداء علينا ونحن صامتون . . أما إذا هاجمنا رغم ذلك فلنا حقنا الطبيعى فى الدفاع عن النفس . . ولتكن معركة حتى ولو استشهدنا كلنا . .

واستمرت المجادلات تتخللها هتافات وإن كان لا يرددها الجميع . .

ومصطفى واقف وسط الزحام بجانب نهى . . يكاد يكون ملتصقا بها . . وهى منذ رأته وهى فرحة به . . وقد شدت على يده قائلة من خلال ضحكتها كعادتها :

ـ كنت أخشى ألا تنضم إلى الغلابة . .

وقال مصطفى كأنه يلومها :

ـ ليس هنا غلابة . . هنا قوة شعبية . . وقد جئت لأنضم إلى القوة . .

وصاحت نهى :

ـ وسنفرض قوتنا على الحكومة . . سننتصر . .

وكانت نهى لا تكف عن الكلام مع كل من حولها . . وصوتها عال كأن كل كلماتها هتافات . . بينما مصطفى يتطلع حوله صامتا . . كأنه يحاول أن يكتشف عالما جديدا غريبا عليه . . إنه يرى كثيرا من الطلبة المعروفين لم يكن يراهم فى لقاءات البوفيه التى تلتف حول محيى الدين عبد السلام . . بل إنه اكتشف أن ليس كل الطلبة يقفون أمام محيى الدين عبد السلام . . إنهم منقسمون إلى جماعات تلتف كل منها حول شخصية أخرى . . ماذا يقول كل منهم . . لا يدرى . . ولا يستطيع أن يسمعهم . . إلى أن بدأت المسيرة . .

كانت كتلة واحدة من البشر تتحرك فى صمت . . وكان مصطفى بجانب نهى يسيران فى الصف الأول بجانب محيى الدين . . وبعد أن خرجوا من فناء كلية الهندسة التقوا بمجموعة كلية الحقوق . . وكلية الآداب . . ولحقت بهم مجموعة كلية الزراعة . . الآلاف تتحرك فى صمت كأن مصر فعلا فى جنازة . . ولكنهم ما كادوا يصلون إلى

مدخل الشارع العمومى حتى وجدوا رجال البوليس يسدون الشارع وفى يد كل منهم هراوة وفى يده الأخرى درع مخصصة لحماية نفسه . .

وارتفع هتاف :

ــ البوليس مع الشعب . . والشعب مع البوليس . .

وردد هذا الهتاف بقوة . .

ثم رفع محيى الدين ذراعيه يطلب من الجميع التوقف . . ثم تقدم وحده متجها إلى ضابط البوليس الذى يبدو كأنه القائد . . وما لبث أن لحق بمحيى الدين ثلاثة من الطلبة الآخرين لعلهم قادة التنظيمات الأخرى . . وقال محيى الدين لضابط البوليس بعد أن وصل إليه :

ــ إننا نقوم بمسيرة سلمية . . وقد قررنا أن نمتنع حتى عن الهتاف . . إلى أن نلتقى برئيس الوزراء ونبلغه مطالبنا . .

وقال الضابط فى برود :

ــ ممنوع . . عودوا إلى داخل الجامعة وقولوا رأيكم ومطالبكم دون أن تخرجوا منها . .

وصاح واحد من قادة الطلبة الملتفين حول الضابط :

ــ لن نعود . . وسنستمر بالمسيرة حتى مجلس الوزراء . .

وصاح الضابط فى سخط وهو يشير بأصبعه إلى رجاله :

ــ قلت لكم ممنوع . .

ومد يده يهم أن يمسك بمحيى الدين كما هم بعض رجاله أن

يمسكوا بالباقين . . ولكن الطلبة استطاعوا أن يفروا من أمامهم ويجروا إلى تكتل مجموعة المتظاهرين . .

وبدأت المعركة . .

وكالعادة . . البوليس يطارد الطلبة بالعصى الغليظة . . ويطلق الرصاص فى الهواء مهددا بأن يطلقه عليهم . . كما يطلق قنابل تذرف دموع العيون التى تمسها . . والطلبة يدافعون عن أنفسهم بقذف الحجارة . . وقد يتمكن بعضهم من الانفراد بأحد عساكر البوليس فيلقونه أرضا وينهالون عليه ضربا . . ومصطفى حائر . . لا يدرى كيف يهاجم ولا كيف يدافع عن نفسه . . ولكنه يجرى وراء نهى . . يهرب معها . . ويقف معها وهى تلتقط الطوب وتلقى به . . إن حولهم أكواما كثيرة من الطوب لم يلحظها من قبل . . هل جمعت خصيصا لملاقاة هجمات البوليس . . ولكنه لا يلتقط طوبة ويقذف بها . . إنه فقط بجانب نهى . . وهى تنضم حينا بعد حين إلى المجموعات البعيدة عن البوليس وتردد معهم الهتافات . . وهو أيضا يردد معها هذه الهتافات . . ولكنها هتافات عجيبة بالنسبة له . . « مش كفاية لبسنا الخيش جايين ياخدوا رغيف العيش » . . « ياحرامية الانفتاح . . الشعب جعان مش مرتاح » . . « يشربوا ويسكى ويأكلوا فراخ والشعب من الجوع أهو داخ » . . « هو بيلبس أخر موده واحنا بنسكن عشرة فى أوده » . . بل إن الهتافات تطورت إلى أبعد من ذلك . . لم تعد مقصورة على رفض رفع الأسعار . . لقد كانوا يهتفون . . « الصهيونى فوق ترابى والمباحث على بابى » . . « ياأمريكا لمى فلوسك بكره الشعب يدوسك » . . « احنا الشعب مع العمال ضد حكومة الاستغلال » . . و . . و . . وهو لم يكن يتصور

أن وحى الموقف يمكن أن يطلق هذه الهتافات المنغمة كأنها أبيات من الشعر . . كما أنها هتافات لا تعبر عن مجرد الموضوعات التى كانوا يناقشونها فى بوفيه الكلية . . إنها تعرض موضوعات سياسية واسعة . . ولكن شلة البوفيه ليست وحدها هى التى تقوم بالمظاهرة أو تقودها . . ووسط كل ما يجرى حوله وعيناه مركزتان على نهى كأنه يخاف عليها . .

وفعلا . . لم تلحظ نهى وهى تجرى فى ميدان المعركة أن أحد عساكر البوليس قد أصبح بجانبها رافعا عصاه لينهال بها فوق رأسها . . وجرى مصطفى إليها وشدها بعيدا عن العسكرى فسقطت العصى على رأسه هو . . كانت ضربة عنيفة شقت رأسه ونزف منها الدم . . وسقط واقعا على الأرض . . وعاجله العسكرى بضربة أخرى بعصاه فوق ظهره . . ثم تخطاه يجرى باحثا عن ضحية أخرى . .

وصرخت نهى . . مصطفى . . ثم سقطت على ركبتيها بجانب جسده الممدد على الأرض . . إنه لا يزال حيا . . وقد رفع يده يضغط على رأسه المشقوق كأنه يحاول أن يحتفظ بدمه المنهار قبل أن يفرعه كله . . وجاء اثنان من الطلبة يحاولان رفعه عن الأرض . . وأحدهما يقول للآخر :

ــ نأخذه داخل الكلية . .

وظهر شاب ثالث . . فتحى إبراهيم . . وهو أحد أفراد شلة البوفيه . . وقال كأنه يهتف :

ــ لا . . لا تدخلوا به إلى الكلية . . إن البوليس يحتلها وقد يقبضون عليه . . تعالوا معى . .

وشدت نهى « الإيشارب » الذى يلف عنقها وحاولت أن تسد به الجرح الذى شق جبينه ثم لفت به رأسه . . وتعاونت مع الباقين فى الوقوف به . .

ولم تكن الضربة قد أفقدت مصطفى وعيه . . ولكن الدماء لا تزال تنزف من رأسه وتجرى فوق وجهه دون أن يستطيع إيشارب نهى أن يصدها . . كما كان يحس بألم الضربة التى سقطت على ظهره . . يحس كأن عظامه قد تفتتت . . وقد استطاع أن يقاوم ويقف مستندا على أكتاف زملائه . . وساروا به وهم يحاولون الجرى به . . ونهى تجرى معهم . . وصاح فتحى إبراهيم فى مصطفى وهو يسنده بذراعه :

ــ أين سيارتك . .

ورفع مصطفى ذراعه مشيرا إلى مكان السيارة وكان قد تركها بعيدا عن مدخل الكلية احتياطا للطوارىء . . وعاد فتحى يصيح :

ــ سأقودها أنا . . أين المفتاح . .

وحاول مصطفى أن يضع يده فى جيبه وهو يسير مترنحا وسيقانه ترتعش مع نظراته . . ولكنه لم يستطع أن يدخل يده فى جيبه حتى يخرج المفتاح فأسرعت نهى ودست يدها بدلا من يده وأخرجت ما فيه من مفاتيح ناولتها لفتحى . .

ودفعوا مصطفى إلى المقعد الخلفى وقفزت نهى جالسة بجانبه ومدت ذراعا فوق كتفه وأمالت رأسه فوق صدرها وهى تضغط بيدها الأخرى على الجرح وتحاول أن تحبس الدم المنهار . . وقفز فتحى أمام عجلة القيادة وهو يقول لزميلته :

ـ سآخذه إلى بيتنا . . إن فى العمارة عيادة طبيب وبجانبها أجزاخانة . .

وانطلق بالسيارة فى سرعة مجنونة . . بينما جرى زميلاه عائدين إلى تجمع المسيرة والاشتراك فى المعركة .

وفى دقائق استطاع فتحى أن يصل إلى العمارة التى تقع عند منحنى من منحنيات ميدان الجيزة . . وكأنه كان يقفز بالسيارة فوق كل ما ومن يعترضها . . وتعاون مع نهى فى جذب مصطفى إلى خارج السيارة وصعدا به السلم وهو يزفر أنفاسه كأنه يتأوه . . ودخلا به إلى عيادة الطبيب فى نفس العمارة . . إن الطبيب أستاذ فى الجامعة ولكنه لم يستطع أن يذهب يومها إلى طلبته اتقاء من المظاهرات . .

ولوى الطبيب شفتيه قرفا وسخطا وهو يستقبلهم . . لقد جاءوا إليه بواحد من المجانين . . ولكنه بدأ يقوم بمهمته . . وقال بعد أن كشف عن الرأس المشقوق :

ـ بسيطة . . لا أكثر من غرزتين . .

وبدأ يغرز الخيط فى جبين مصطفى وهو لا يصرخ ألما رغم أن الطبيب لم يخدره بالبنج ليرحمه من الألم . . ربما لم يكن مصطفى ساعتها قادرا على الصراخ مهما بلغ به الألم . . ونهى وفتحى من حوله وعيونها منكسرة كأنهما على وشك أن يبكيا إشفاقا عليه . .

وانتهى الطبيب ولف رأس مصطفى بالشاش . . وقال فتحى فى لهجة مهذبة :

ـ الأتعاب يا دكتور . .

وقال الطبيب بابتسامة كأنها مغتصبة :

ـ لاشىء . . كأنى مشترك معكم فى المظاهرات . . وأنا مثلكم لا أؤيد ، ولست سعيدا برفع سعر رغيف العيش . . وإنى فى انتظار ابنى ولا أدرى كيف سيعود إلى . . إنى سأطالبه هو بالأتعاب إن لم يعد سليما . .

وابتسم فتحى ونهى امتنانا للطبيب . . وكانت ابتسامة مصطفى أكبر . . كأنه فرح . . لا لأن الدكتور لم يأخذ أتعابا ولكن لأن الدكتور ليس من الغلابة ، ورغم ذلك لا يقبل رفع سعر الرغيف . .

وسانده فتحى حتى دخل به إلى بيته وأجلسه على مقعد مريح . . إن مصطفى رغم طغيان الألم الذى يضج فى رأسه إلا أنه استرد كامل وعيه وأفاق من انهياره وضعفه . . وقالت نهى وهى تشير إلى رأسه الملفوف بالشاش وتبتسم ابتسامتها الواسعة كعادتها :

ـ لقد بدأت تعتدى على حقوقى . . فهذه الضربة كانت من حقى أنا . .

وقال من خلال ابتسامة ضعيفة :

ـ لا تكونى أنانية وتفرقى بين حقوق الناس . . والبوليس لا يعتدى علينا ليعطينا حقا ولكنه يسلب حقوقنا . . وكلها حق واحد . .

وبحلقت نهى فى وجهه كأنها دهشة لما يقوله . . إنها أول مرة تسمع منه مثل هذا الكلام . . لعل الضربة قد غيرت فكره وآراءه . . أو لعله كان تائها إلى أن أفاقته الضربة على المكان الذى يختار أن يقف فيه . .

واعتذر فتحى ليغيب عنهما دقائق . . ونزل إلى الشارع ووقف

أمام سيارة مصطفى التى كان يقودها ودار حولها كأنه يحاول أن يتعرف عليها . . إنه منذ كان صبيا وهو يحلم ويتمنى أن يملك سيارة . . وقد علم نفسه قيادة السيارات وتفوق فيها ولكنه إلى اليوم لا يملك سيارة . . لا هو ولا عائلته . . ولا يستطيع أن يتصور طريقا يصل به إلى شراء سيارة . . بل إن أحلامه بدأت تنحصر فى أن يبدأ بأن يكون سائق تاكسى رغم أنه طالب فى كلية الهندسة . ولكنه اختار أن يدرس الهندسة الميكانيكية حتى يستوعب كل ميكانيكية السيارات . . وربما بعد أن يكون سائق تاكسى يستطيع أن يشترى سيارة لنفسه . . إن سائقى التاكسى يحققون أرباحا وفيرة . .

وركب فتحى السيارة بعد أن أقنع نفسه أنه سيعدل موقفها بمحاذاة الرصيف . . ولكنه ما كاد يمسك بعجلة القيادة حتى انطلق بها يلف ما حول الشارع من حوارى . . إنه لا يستطيع أن يقاوم شهوة القيادة . . ولكنه ما لبث أن عاد وركن السيارة أمام العمارة ثم نزل منها وأغلق أبوابها بالمفتاح وهو يتحسس جدرانها بيديه كأنه يربت عليها مودعا . . ثم صعد إلى شقته ودخل على مصطفى ونهى ومد يده بسرعة إلى مصطفى يناوله مفتاح السيارة كأنه يهرب مما تثيره فيه شهوة القيادة . .

وكانت الساعة قد وصلت إلى الثانية بعد الظهر عندما وفد عليهم محيى الدين عبد السلام واثنان من زملائه . . لقد علموا بإصابة مصطفى وحمله إلى بيت فتحى فجاءوا للاطمئنان عليه . . ولكن محيى الدين لم يسأل عما يطمئنه ولكنه نظر إلى رأس مصطفى المضمد بالشاش نظرة عابرة ثم قال :

— فضت المسيرة قبل أن تصل إلى الكوبرى . . لقد كان

البوليس يضرب فينا بقسوة . . كانت معركة كأنها معركة أكتوبر جديدة . . معركة الشعب المصرى وإن لم تكن ضد إسرائيل . . لقد سقط من بيننا كثيرون واعتقلوا العشرات . .

وصاحت نهى كأنها تعود إلى الهتاف :

— إما أن يفرجوا عن المعتقلين أو يعتقلونا كلنا . . لن نستسلم ولن تنتهى الثورة . . ثم خفت صوتها واستطردت قائلة وهى تستدير نحو الباب :

— عن إذنكم . . إنى مضطرة أن أعود إلى بيتى الآن . .

وتتبعها مصطفى بعينيه وهى خارجة وهو يودعها بابتسامة ساخرة . . إنها لا تستطيع أن تخل بواجباتها الزوجية حتى فى سبيل الوطن . .

وجلس محيى الدين بجانبه وقال فى صوت هادىء كأنه ينوى أن يحادثه طويلا :

— إننا لن نسكت . .

وقال مصطفى فى حدة يعترضها زنين آلامه التى تنطلق من رأسه :

— لا . . لن نسكت . . إنهم أغبياء لا يعلمون أن تقييد الحرية يدفع إلى مزيد من الحرية . .

ونظر إليه محيى الدين كأنه فخور مزهو باكتسابه ثم قال :

— ولكننا يجب أن نساومهم . . فإذا أفرجوا عن المعتقلين نعدهم

بالتفاهم معهم فى سلام . . وقد خطرت على بالى فكرة . . فإن والدك يستطيع أن يكون الوسيط بيننا وبينهم . .

واهتز مصطفى كأنه فوجىء بذكر والده وكأنه كان قد نسيه . . وقال :

ـ أن أبى ليس مسئولا عن الحكومة . . ولا يتدخل فى أى تصرف حكومى . . إنه متفرغ لمسئولياته بعيدا عن أى مسئولية عامة . . أبى لا يعتبر من رجال السياسة . .

وقال محيى الدين كأنه يلومه :

ـ ولكن من المعروف أن والدك صديق حميم لرئيس الحكومة ولكل المسئولين . . وقد يستطيع إقناعهم . . ومسئوليته اليوم ليست مسئولية عامة ولكنها مسئولية خاصة جدا . . لأنها مسئوليته عن ابنه . . لقد أصبحت منا ومعنا . .

وقال مصطفى كأنه يقاوم :

ـ إنى لا أتحدث مع أبى فى أى موضوع سياسى . . ولا يجمع بيننا أى رأى . . كلانا متباعد عن الآخر ويفكر لنفسه . .

وقال محيى الدين محاولا أن يقنع مصطفى ولو اضطر إلى أن ينافقه :

ـ إن والدك حتى لو لم يكن محترفا سياسيا . . ولم يتول أى منصب رسمى . . إلا أنه يعتبر شخصية شعبية . . كل الشعب يعرفه . . ولن يرفض أن يكون وسيطا بين الشعب والحكومة . . إن ما نطالب به يطالب به الشعب كله . . ولو استطاع أن يقنع الرئيس بالإفراج عن المعتقلين . . ولو استطاع أن يحدد معه موعدا ليستمع إلى

ممثلى الطلبة . . فلن نلجأ إلى المظاهرات والمسيرات ولن يضطروا إلى تسليط البوليس للاعتداء علينا . . إنى كما ترى من أنصار السلام . . ولن يتحقق السلام العالمى إلا إذا تحقق السلام الداخلى بين الحكومة والشعب .

واشترك فى المناقشة كل الحاضرين . . وكلها مناقشات حول دفع والد مصطفى إلى مطالبة رئيس الوزراء بالإفراج عن المعتقلين . .

وكانت آخر كلمة قالها مصطفى :

ـ سأحاول . .

وقام ليعود إلى بيته ، وصاح فتحى :

ـ سأقود لك سيارتك . .

وقال مصطفى وهو منصرف :

ـ شكرا . . سأقودها بنفسى حتى أتعود على القيادة وأنا مجروح . .

وتنهد فتحى كأنه ساخط على فقدان أمله فى تحقيق شهوة القيادة . .

ومصطفى يقود سيارته فى بطء كأن آلامه التى تضج فى رأسه هى التى تقود . . وكانت السيارة نفسها تتحرك كأنها تتأوه . .

الفصل الثالث

كان المليونير رضوان الدسوقى جالسا فى زهق يقلب الصحف بين يديه وينظر فى الصفحات دون أن يقرأ منها سطرا . . إنه فى انتظار عودة ابنه مصطفى من الجامعة ليتناول معه طعام الغداء . . والالتفاف حول مائدة الغداء هو الاجتماع الأساسى الذى يجمعه بابنه كل يوم . . فهو فى الصباح يفتح عينيه وعقله كله مشغول بأعماله ويتعجل الذهاب إلى مكتبه حتى لا يستطيع أن يشارك ابنه طعام الافطار . . وفى المساء يعود إلى مكتبه فى الساعة الخامسة مع الشتاء والسادسة مع الصيف دون أن يحدد متى سيعود إلى البيت . . وعادة لا يلتقى مع ابنه فى المساء . . إن مائدة تناول الغداء هى وحدها التى تجمعه بابنه . . وهو يتعمد الحرص على هذا اللقاء . . بل إن المواعيد المحددة لتناول طعام الغداء تطورت مع تطور موعد انتهاء ابنه من المدرسة ثم من الجامعة . . وهو يعيش كل حياته على مواعيد محددة . . وكان موعد تناول الغداء منذ التحق ابنه بالجامعة فى الساعة الثانية بعد الظهر . . ثم جعله مع تطور دراسة ابنه يبدأ فى الساعة الثانية والنصف . . ثم ارتفع به إلى الساعة الثالثة . . ولكن الساعة الآن بلغت الرابعة ولم يعد ابنه إلى البيت . . ورغم ذلك فهو لا يزال مصرا على انتظاره . .

وليس معنى هذا أن السيد رضوان يعتبر أبا عاطفيا . . يغلبه حبه لأولاده مهما تحمل أى معاناة . . أبدا . . إنه أب معروف بأنه صارم

فى جديته . . وهذه الجدية تغلب كل عواطفه حتى بالنسبة لزوجته . . ومن جديته أنه يعيش كل حياته وكل يوم من أيامه فى نظام مرسوم وموعد محدد لكل خطوة تفرضها مسئولياته . . وهو النظام الذى يفرض تناول الغداء يوميا مع ابنه . . لا ليغطى متعته باللقاء به أو لهفته إلى رؤيته أو الإفاضة عليه بكرم الأب وتدليله . . ولكن فقط لأنه يحمل مسئولية الاطمئنان على هذا الابن وتتبع أخباره يوما بيوم ومناقشة كل ما يطرأ على عقله من آراء أو نوايا . .

وكانت الساعة قد وصلت إلى الرابعة والنصف عندما عاد ابنه مصطفى إلى البيت . . وقد فوجىء به الأب ورأسه ملفوف بضماد من الشاش الثقيل . . ووجهه ممتقع باللون الأصفر . . وإن كانت عيناه تلمعان بحدة كأنه لا يزال فى معركة عنيفة . .

وكادت تنطلق من الأب صرخة جزع . . ولكنه بذل مجهودا عنيفا ليكتم صرخته . . وهو يدور بعينيه فى تفاصيل كيان ابنه . . إنه سليم . . وهو واقف على قدميه أمامه ليس فيه ما جد عليه إلا هذا الضماد الذى يلف رأسه وهذه الصفرة التى تكسو وجهه . . واستراح الأب فى جلسته وقال وهو يفتعل منتهى الهدوء :

ـ ماذا حدث . . ؟

وانحنى الابن وقبل يد أبيه كما تقضى التقاليد المفروضة عليه . . وإن كانت قبله سريعة فاترة . . وقال فى ثبات :

ـ لقد قمنا بمظاهرة . . واعتدى علينا البوليس رغم أنها كانت مظاهرة سلمية . .

وابتلع الأب ريقه بعد أن عرف السبب فى أن رأس ابنه مضمدة وقال :

ـ هل انقدت إلى هذه المظاهرة أم كنت موافقا على الدعوة إليها والاشتراك فيها . .

وقال الشاب منطلقا فى حماس :

ـ طبعا وافقت . . بل كنت من قادتها . . واعتدى البوليس علىّ . .

وقال الأب مقاطعا وهو يزفر أنفاس السخط :

ـ من حق البوليس أن يعتدى عليك . .

وصاح الشاب فى وجه والده :

ـ كيف يكون من حقه أن يعتدى علينا فى حين أننا لم نعتد على أحد ولا على شىء . . لقد قررنا أن تكون مظاهرة سلمية . . حتى أننا لم نكن نطلق أى هتاف . . مجرد مرور فى الشوارع . . وطبعا الحكومة ستعرف دوافع هذا المرور . . و . .

وعاد الأب يقاطعه قائلا :

ـ هل أبلغتم البوليس قبل القيام بهذه المظاهرة . . وحصلتم على موافقته ؟

وصاح مصطفى :

ـ طبعا لا . . فالبوليس لا يمكن أن يوافق على أى مظاهرة سواء سلمية أو غير سلمية . . إلا إذا كانت مظاهرة مؤيدة لرئيس الحكومة وتهتف له . .

وقال الأب فى لهجة جادة كأنه يلقى درسا على ابنه :

ــ إن مسئولية البوليس تفرض عليه فض أى تظاهر لم يبلغ به مقدما ويوافق عليه . . فالمظاهرات تتيح الفرصة ليندس فيها دخلاء لهم أغراض وأهداف أخرى تهدد بالفوضى وتبدد الأمن . . إن كل المظاهرات تنتهى على الأقل بالاعتداء على المحال التجارية ونهبها . . والبوليس هو المسئول عن الأمن . . و . .

وقال مصطفى وهو الذى قاطع هذه المرة صائحا :

ــ ولماذا لم يكتف البوليس بحماية مظاهرتنا من الدخلاء دون أن يعتدى علينا . .

وقال الأب فى هدوء :

ــ مادام البوليس لم يكن على علم بهذه المظاهرة مقدما فمن حقه أن يعتبركم كلكم من الدخلاء . . أى يجردكم من حقيقة أهدافكم وينسب إليكم ما شاء من اتهامات . . وأحب أن أقول لك أن استعداد البوليس لحماية مظاهرة يتطلب وقتا طويلا يسبقها بأيام . . ولا تتصور أن رئيس الدولة نفسه يستطيع أن يفاجىء البوليس بأى تحرك له بين الشوارع . . بل يجب أن يبلغ البوليس بهذا التحرك مقدما حتى يستعد لحمايته وحماية المتظاهرين له . . أى حتى رئيس الدولة مضطر لاستئذان البوليس . . وكل الذين يقومون بأى مظاهرة يعلمون أنهم سيواجهون البوليس . . ويتعرضون لفضهم ولو بالقوة . . ولذلك فمعظم قادة المظاهرات يحسبون حساب البوليس ويخطط كل منهم للهرب منه قبل أن يصيبه أى اعتداء . . ونادرا ما يقع الاعتداء على واحد منهم . . بل يتركون الاعتداء ينصب على باقى المتظاهرين

الذين دفعوا بهم إلى التظاهر . . لذلك فانى لا أصدق ما قلته لى من أنك كنت أحد قادة هذه المظاهرة . . فقد اعتدى عليك كفرد عادى خدع وانقاد عفوا إلى تحريض القادة . .

وقال مصطفى وهو يحلق فى وجه أبيه كأنه يلومه :

ــ هذا غير صحيح . . كلنا أصابنا اعتداء البوليس . . وما أصابنى أقل مما أصاب غيرى . . والقائد هو الأقوى إيمانا والأجرأ على التحرك للتعبير عن رأيه الذى يعبر عن رأى المجموع . . وأنا مازلت محتفظا بإيمانى . . وانتهى بى اعتداء البوليس إلى أن أصبحت أكثر جرأة على التحرك معبرا عن رأيى . . يجب أن نفرض هذا الرأى فهو رأى الشعب . .

وقال الأب فى رنة ساخرة :

ــ ربما لأنك وزملاءك القادة مازلتم حديثين فى إقامة التنظيمات السياسية . . فلم تعرفوا ولم تتعودوا على مواقف القادة . . إن تنظيم المظاهرات كتنظيم كل المعارك حتى العسكرية . . فالقائد العسكرى لا يشترك بشخصه فى المعركة ولكنه يكتفى بالتخطيط لها ويبقى خلالها متسترا فى مكتبه وبين حرسه الخاص . . وهكذا قادة الأحزاب أو التجمعات السياسية التى تخطط للمظاهرات . . يحرضون عليها ويخططون لها وهم مختبئون بعيدا عن أن تنالهم يد البوليس . .

وجلس مصطفى بجانب والده السيد رضوان وقال كأنه يرجوه :

ــ لا تلمنى يا بابا . . ولا تحاسبنى . . ولا تضيع وقتنا فى مثل هذا الكلام . . فاننا فى حاجة إليك لتقف بجانبنا بعد أن بدأنا بهذه المظاهرة . .

وقال الأب فى حدة :

— هل أخذت رأيى فى هذه المظاهرة قبل أن تقوموا بها ؟!

وقال الابن وهو محتفظ بهدوئه ويبتسم كأنه يحاول أن يغرى أباه بابتسامته :

— لقد كنت أتحمل مسئولية وطنية . . وهى مسئولية مفترضة فى الأبناء والآباء وليست فى حاجة إلى الاستئذان . .

وقال الأب ساخطا :

— إن مسئوليتك الوطنية يجب أن تجارى بها مسئوليتك عن نفسك . . وأنت لست إلى اليوم مسئولا وحدك عن نفسك فأنا مسئول معك عنك . . ويوم تنفرد بمسئوليتك عن نفسك يكون من حقك أن تتصرف فى كل حياتك دون أن تتفق معى أو تستأذن . . ولكنك تعيش بمسئوليتى عنك وهى مسئولية تفرض عليك أن تحسب حسابى فى أى تصرف من تصرفاتك بما فيها اشتراكك فى مثل هذه المظاهرة الطلابية . .

وصاح مصطفى وإن كانت صيحة لا تخل باحترامه لأبيه :

— لقد كنت أنت الدافع الأول والأقوى لاشتراكى فى هذه المظاهرة . .

وقال الأب فى دهشة :

— أنا لا يمكن . . لم أكن أعلم شيئا عن هذه المظاهرة . .

وقال الابن وهو يخفى عينيه عن أبيه كأنه يخشى أن يواجهه بها :

— إنى معروف بين كل الطلبة بأن أبى صديق لرئيس الدولة ولرئيس الوزراء ولكل الوزراء . . إنك معروف بأنك صديق للحكومة رغم أنك لست أحد المسئولين عن الحكم . . وقد أردت أن أثبت لكل الطلبة أن صداقة أبى للحكومة ليس معناها رفض المطالب الشعبية الوطنية . . ولا رفض الاشتراك فى التعبير عن هذه المطالب بأى وسيلة من وسائل التعبير بما فيها القيام بمظاهرات شعبية . . أردت أن أنفى عنك باعتبارى ابنك وممثلا لك أن صداقتك للحكومة تعنى الاستسلام لها وتأييد انحرافاتها . . وقد اعتمد على الطلبة فى هذه المظاهرة كأنهم يعتمدون عليك أنت . . ووضعونى فى مقدمة القيادة كأنهم اختاروك أنت زعيما . . فأنا أنت . .

وقال الأب ساخرا فى مرارة :

— كل ذلك وأنا لا أعلم ولا أدرى ولا أنتظر شيئا . . كأنك أصبحت أنت المسئول عنى . . أنت الأب وأنا الابن . . أنت الأب الذى يحرص على رسم صورة ابنه أمام الناس . . أى صورتى أمام زملائك الطلبة أصحاب السيادة . .

وقال الابن كأنه يستجدى أباه أن يصدقه :

— أبدا يا بابا . . إن زملائى يتصورون أنى لم أنضم إليهم إلا تعبيرا عن موقفك أنت . . وبعد أن استشرتك واتبعت نصائحك ونلت موافقتك . .

وصاح الأب مقاطعا فى سخط :

— هذه مصيبة . . فكأنهم اعتبرونى معارضا للحكومة . . ناقما عليها . . أو لعلهم أخبث من ذلك فرغم أنهم يتصورون أنى

لا يمكن أن أكون معارضا للحكومة إلا أنهم خدعوك بضمك إليهم حتى يستغلوا اسمك واسمى فى إقناع الناس بأنه حتى مؤيدى الحكومة قد انقلبوا عليها واشتركوا معهم فى الثورة عليها . .

وقال مصطفى وكأنه لا يزال يستجدى :

– أبدا يا بابا . . إنهم يعترفون بصداقتك للحكومة . . الصداقة المنزهة التى لا تستسلم للأخطاء ولا تعتبر مسئولة عن اعتداءات الحاكم على الشعب المحكوم . . بل إنهم يحاولون استغلال هذه الصداقة للوصول بالحكومة إلى الطريق الصحيح . . وقد طلبوا منى أن أطلب منك أن تحدد لهم موعدا ليجتمعوا بك ويعرضوا عليك مطالبهم وآراءهم حتى تتوسط لهم لدى الحكومة . . على الأقل لاقناع الحكومة بالإفراج عن المعتقلين وعدم تسليط البوليس للاعتداء عليهم بعد أن اعتدى على ابنك . . أى على أنا . .

وقال الأب وهو أشد سخطا :

– إنى لست مسئولا عن لقاء الطلبة ومناقشتهم ولا حتى مجرد الاستماع إليهم . . ثم ماذا أقول لوزير الداخلية لو قررت أن أذهب وأرجوه ألا يترك البوليس يعتدى على ابنى . . إن كل ما أستطيع أن أقوله هو أن أعتذر له نيابة عنك . . أعتذر عن اشتراكك فى هذه المظاهرة . . وأقول له أنك انقدت إلى هذه المظاهرة عفوا دون قصد . . ثم أتعهد له بأنك لن تعود أبدا للاشتراك فى مثل هذه المظاهرات . . فهل تقبل أن أعتذر للوزير باسمك . . وهل توافقنى على التعهد بأنك لن تعود إلى الاشتراك فى المظاهرات . .

وقاطعه الابن فى حدة :

– لا . . إنى لا أقبل الاعتذار للوزير . . وقد أتردد طويلا فى أن أقبل اعتذاره هو لى . . فأنا لم أبدأ بالاعتداء على البوليس . . ولكن البوليس هو الذى بدأ بالاعتداء على . . ثم إنى لا يمكن أن أتعهد بعدم الاشتراك فى أى مظاهرة أخرى يقررها الطلبة . . فنحن لا نلعب ونحن نتظاهر حتى نقلع عن هذه اللعبة . . ولكننا نقوم بما تفرضه علينا المسئولية الوطنية . . وهى مسئولية تفرض تحمل الاعتداء علينا حتى لو وصل الاعتداء إلى حد الاستشهاد فى سبيل الوطن . .

وقال الأب وهو يلوى شفتيه قرفا :

– إذن فلا يمكن أن أحادث الوزير فيما حدث لك . . وإذا بدأ هو بإبلاغى أنك اشتركت فى المظاهرة . . فسأرد عليه بأنى لم أكن أعرف وأنى فوجئت . . وربما قلت له أنى أعانى من أن ابنى مجنون . . وكل ما أريده منك هو ألا تتجاهل مسئوليتى عنك . . وتتركنى أعانى من هذه المسئولية أو أتخلى عنها . .

وقام الابن منطورا وابتعد عن أبيه مختفيا فى غرفة أخرى . .

وبعد دقائق دخلت زوجته عفاف فى خطوات عصبية وصاحت فى كلمات مرتعشة :

– لماذا لا تريد أن تتصل بالوزير لتبلغه بما حدث لابنى . .

وقال السيد رضوان فى تصميم :

– لن أتصل بأحد . . وما حدث قد حدث . .

وقالت الأم بصوتها المرتعش :

– سأتصل أنا بصفية هانم حرم الوزير .. كيف يتركون البوليس يضرب ابنى ..

وقال فى برود :

– افعلى ما شئت .. ولن أعتبر نفسى مسئولا .. وبالمناسبة .. إن ابننا حرمنا من أن نتناول الغداء حتى الآن ..

وقالت زوجته وهى تدير له ظهرها :

– تفضل .. الغداء جاهز لو كنت تستطيع أن تأكل وابنك مضروب ورأسه مشقوق ..

★ ★ ★

ووجد الأب نفسه جالسا على مائدة الغداء وحده .. فابنه راقد فى غرفته مع رأسه المضروب وبجانبه أمه .. إن النظام الذى يعيش عليه قد اختل .. ثم إن الساعة قد وصلت إلى الخامسة .. ويبدو أن مجرد الإخلال بالنظام يؤثر على أعصاب بطنه .. لقد تعودت هذه البطن أن تأكل فى الساعة الثالثة فإذا تجاوزتها دون أن تأكل انقبضت وانكمشت ولم تعد تقبل أى طعام .. ورغم ذلك فهو جالس يمد يده إلى الطعام ويلقى به فى فمه دون أن يتذوقه .. وهو ساهم كأن فى عقله زوبعة يستسلم لها ..

لماذا لا ينتظر أن يشترك ابنه مصطفى فى الحياة السياسية التى يعيشها الطلبة .. ولماذا فوجىء كل هذه المفاجأة ؟

إنه هو شخصيا قضى كل أيام دراسته وهو يعيش الحياة السياسية التى يعيشها الطلبة .. ولكنه كان يتعمد عدم الاشتراك فى المظاهرات

التى تطوف الشوارع وتنتهى بانطلاق المعارك مع البوليس .. ورغم ذلك فقد استطاع أن يقيم لنفسه شخصية بين الطلبة كأنه واحد من الزعماء .. فقد كان من أبرز الطلبة فى دراسته وفهم كل الشئون السياسية .. ومن أحرصهم على تقدير كل الأوضاع والأحداث التى تتعلق بها يمكن أن يثير إحساس الطلبة بمسئوليتهم الوطنية .. كما كان معروفا بأنه محدث لبق ..

بل كان كثيرا ما يقف خطيبا بين الطلبة ويستطيع أن يدفعهم إلى الاقتناع بما يكون قد قرره .. وكان معروفا عنه أنه خطيب هادىء .. لا يصيح بكلماته .. ولا يختار الكلمات المثيرة الصارخة .. ولا يطلق هتافات يرددها الطلبة وراءه .. بل كان يتحدث أو يلقى خطابه كأنه أستاذ يلقى درسا يعتمد على كشف الوقائع والأهداف .. ولم يطالب أبدا بأن يخرج الطلبة إلى الشوارع فى مظاهرة أو يطالب باعلان الثورة .. ولكنه كان واثقا من نفسه إلى حد أنه كان يعلم مقدما ما سينتهى إليه كلامه .. قد ينتهى بأن يقنع الطلبة بالخروج فى مظاهرة .. أو قد ينتهى بتكوين جماعة تقوم بعملية وطنية سرية .. أو قد ينتهى كلامه بأن يقرر الطلبة تأجيل التحرك فى انتظار ما يمكن أن يحدث . أى أنه كان أحد الموجهين لكل تحركات الطلبة دون أن يظهر بنفسه فى الصفوف الأولى .. ودون أن يشترك فى تنفيذ أى عملية .. إن كل مسئوليته كانت مقصورة على أن يفكر .. وينقل أفكاره إلى جموع الطلبة ..

وكل ما كان يحرص عليه هو علاقاته الشخصية بأفراد الطلبة .. وخصوصا الأفراد الأكثر تطرفا أو الذين وصلوا إلى مراكز قيادية .. وقد نجح فى أن يكسب ثقة الجميع وصداقتهم .. ربما لأنهم كانوا

لا يعتبرونه منافسا لهم فى اتخاذ مظاهر الزعامة بين الطلبة . . مجرد أستاذ يقف خلف الصفوف ويستطيعون أن يستغلوا أفكاره وكلماته فى التزود بدوافع مقنعة للقيام بمظاهرة أو وضع هتاف جديد يثير المتظاهرين . .

ولكن . .

لماذا لم يكن يشترك بشخصه فى المظاهرات أو فى أى عملية وطنية يقوم بها الطلبة ؟

هل كان جبانا يخاف على نفسه من مواجهة البوليس . . مما قد ينتهى بتعرضه للضرب كما ضربوا ابنه أو قد ينتهى إلى اعتقاله . .

أبدا . . إنه لا يعتبر نفسه كأنه كان فى شبابه جباناً . . وقد كانت أجهزة البوليس قد حددت قوة تأثيره على الطلبة . . وربما كانت قد سجلت بعض أحاديثه فى اجتماعاته بين الطلبة وتأكدت من مسئوليته فى إثارتهم . . حتى أنه فى إحدى الأمسيات اصطاده أحد ضباط البوليس . . وقال له فورا :

ـ لعلك تعلم بما يعده زملاؤك الطلبة للقيام به صباح الغد . .

ورغم أنه كان قد عرف أن الطلبة سيقومون بمظاهرة متفق عليها بين قيادات كل كليات الجامعة وكان واحدا من الذين أوحوا بقيام هذه المظاهرة . . إلا أنه أجاب الضابط فى هدوء وبصوت خفيض :

ـ لا أعلم شيئا . .

وقال الضابط وهو يبتسم ابتسامة تقطر بالسخط :

ـ سواء كنت تعلم أو لا تعلم فإننا نعرف أن لك تأثيرا كبيرا على

زملائك من الطلبة . . وتستطيع أن تتصل بهم الآن وتقنعهم بالعدول عن المظاهرات التى ينوون القيام بها غدا . .

وقال رضوان وهو محتفظ بهدوئه :

ـ أنا لم أشترك فى أى مظاهرة . . ولا أعرف أحدا من الذين يتظاهرون . .

وقال الضابط فى حدة كأنه يبصق فى وجهه :

ـ إنى لا أرجوك ولكنى أحذرك . . فنحن نعتبرك أحد المسئولين عن كل ما يجرى فى الجامعة . .

وابتعد عنه ضابط البوليس . . وظل هو محتفظا بهدوئه كأنه لم يفاجأ باتهام خطير . . وكل ما فعله فى اليوم التالى أنه لم يذهب إلى الجامعة ولم يحاول أن يلتقى بأحد من زملائه . . وقامت مظاهرات الطلبة . . قوية مدمرة . . وضرب البوليس الكثيرين منهم حتى نقل بعضهم إلى المستشفيات كما اعتقل الكثيرون . . وهو لم يضرب ولم يعتقل . . ولا حتى عاد البوليس واستدعاه ليؤكد اتهامه بما حدث . . رغم أنه لم يغير بعدها موقفه بين الطلبة ولم يعدل عن إمدادهم بأفكاره وكلها أفكار ثورية . .

ومد رضوان الدسوقى يده والتقط لقمة من مائدة الغداء وألقى بها فى فمه . وأخذ يمضغ فيها وهو لا يحس بمذاقها . . ساهما فى ذكريات شبابه ويسائل نفسه . . كيف استطاع أن يقيم من نفسه هذه الشخصية التى تزاول كل حقوقها الوطنية . . وتعيش كل الأحداث السياسية . . دون أن تعرض نفسها لسخط الحكومة وصب اعتداءات البوليس عليها . .

وابتسم ابتسامة حزينة مسكينة وهو يتذكر والده المرحوم . . إن أباه هو الذى كون فيه هذه الشخصية . . لا لأنها الشخصية التى ورثها عنه بل لأن واقع الحياة التى عاشها معه كانت تفرض عليه هذه الشخصية . .

كان أبوه موظفا تافها لم يتم تعليمه ولا يحمل شهادة . . وكان من بين الموظفين الذين يقفون فى الممرات على أبواب باقى الموظفين . . مجرد خادم . . ومرتبه كما كان يعلم لا يتجاوز ثمانية جنيهات وربما ارتفع إلى عشرة فى أواخر أيامه . . كان فقيرا . . وكان مسئولا بفقره عن حياة عائلة تضم أربع بنات وصبيا واحدا ، ورغم كل ما يعانيه من فقره فقد كان يعيش هدفا واحدا وهو أن يتم ابنه تعليمه . . أن يدخل ابنه الجامعة التى لم يدخلها هو . . وقد تمر به أيام يجوع فيها وتجوع معه العائلة كلها . . ولكن لا يمر يوم دون أن يذهب ابنه إلى المدرسة . . وقد كان أبا نظيفا طاهرا لا يقبل على نفسه أن يرتكب إثما يحصل به على ما يكفى حياته . . ربما كان كل ما يقبله ويتمناه بينه وبين نفسه هى الإكراميات أو البقاشيش التى يجود بها عليه موظفو الوزارة . . وقد كان محبوبا بينهم . . وقد يغالون فى استغلاله لخدمتهم ولكنهم يأتمنونه ويحترمونه . .

ومنذ بدأ رضوان الدسوقى يعى الحياة وهو يعيش مرتبطا بإحساسه بوالده . . لا يخطو أى خطوة إلا وهو يحسب حسابه . . هل يرضى والده أم لا يرضى . . هل يستطيع والده أم لا يستطيع . . ولم يكن فى حاجة إلى مناقشة والده أو استئذانه ليخطو خطواته . . إنه منذ البداية يحس بأن حياته كلها تنطلق من حياة هذا الأب . . ووجد نفسه يعرف أنه أب فقير . . وأنه يشقى منتهى الشقاء ليوفر له الحياة . . لذلك فقد كان يحسب حسابه تلقائيا . . حتى وهو جالس

يأكل ، فقد كان يحتفظ من رغيف العيش الذى أمامه بقطعة للوجبة التالية حتى يوفر على والده من نفقات إطعام العائلة . . ومنذ دخل المدرسة وهو يركز كل جهده لينجح فى كل امتحان . . إنه لو رسب فى امتحان فسيكلف والده نفقات عام دراسى آخر . . ونجح . . ونجح . . إلى أن وصل إلى الجامعة . . وكان دائما وبفضل مساعى والده يلتحق بالمدارس مجانا . . وبعد أن دخل الجامعة كان يسير على قدميه من إمبابة حيث يقيمون إلى الجامعة فى الجيزة حتى يوفر ثمن تذكرة الأوتوبيس . .

وربما كان هذا الاحساس بوالده هو الذى دفعه لتكوين شخصيته بالنسبة لنشاطه السياسى الذى واجهه منذ كان طالبا فى المدرسة الثانوية . . فهو رغم أنه وجد نفسه ممتلئا بالإحساس الوطنى ومن هواة تتبع الأحداث السياسية والبحث عن أسرارها وفهمها إلا أنه لم يشترك فى أى مظاهرة أو أى تحرك سياسى لا لأنه لا يريد أن يعرض نفسه للبوليس ولكنه لا يريد أن يعرض والده للمتاعب . . فهو إذا ضرب فكأن والده هو الذى ضرب . . وإذا اعتقل فكأن والده هو الذى اعتقل . . وإذا ضاع عليه العام الدراسى فكأن هذا العام ضاع على والده . .

وزفر المليونير رضوان الدسوقى أنفاسه وهو يستعرض ذكرياته متأوها كأنه يتألم وهو يستعرض حال ابنه . .

إن ابنه مصطفى شخصية أخرى . .

إنه يشترك فى المظاهرات ويواجه رجال البوليس ليضربوه ويعود إليه مشقوق الرأس . .

ربما لأن ابنه لا يحس به ولا يحسب حسابه . . كما كان هو يحس بأبيه ويحسب حسابه . .

لا شيء فيه يدفع ابنه إلى الإحساس به . . أو يدفعه إلى الإيمان بأن حياته هى نفس حياة أبيه . . أو يدفعه إلى تصور أن أباه يعانى فى سبيله حتى يراعى ألا يسبب له متاعب أكثر . .

★ ★ ★

وهم رضوان الدسوقى أن يمد يده مرة أخرى ليلتقط لقمة ولكنه تنبه فجأة كأنه أفاق من خيالاته . . ونظر فى ساعته . . إنها السادسة . . تأخر عن موعد الذهاب إلى مكتبه . . أن ابنه يلخبط كل النظم التى وضعها ليعيش فيها وبها . .

وانطلق خارجا من البيت كأنه يجرى . .

وسمع صوت زوجته تجرى وراءه صائحة :

— تحدثت مع صفية هانم فى التليفون وحكيت لها الحكاية لتحكيها للوزير . . وقد ذهلت . . كيف يجرؤ البوليس على ضرب ابن رضوان الدسوقى . . و . .

وكان قد أغلق الباب وراءه بعنف كأنه يكتم صوتها حتى لا يسمعها . .

الفصل الرابع

لم يستطع الأب رضوان الدسوقى وهو فى مكتبه أن يركز كل عقله على الأوراق التى تعرض عليه . . وقد تعود ألا يشغل عقله إلا بموضوع واحد إلى أن ينتهى منه وينتقل إلى موضوع آخر . . حتى وهو صبى ، ثم فى شبابه وهو لا يزال طالبا كان لا يشغل عقله بأى موضوع حتى لو كان موضوعا خاصا بحاله إلا بعد أن ينتهى من المذاكرة التى يزود بها عقله بما هو مفروض عليه . . كان يستطيع أن يركز كل عقله ساعات طويلة بين الكتب والأوراق التى يدرسها وهو بعيد عن كل الدنيا إلى أن ينتهى فيعود إلى الدنيا ويترك الحرية لعقله ليفكر فى حاله أو فى الموضوعات السياسية التى تشغل بال الطلبة ويحاول أن يرسم لنفسه خطوطا تحدد كل تصرفاته . . كأنه يخطط لكل يوم من أيامه . . بل إنه كان يصل إلى حد اختيار كلمات يقولها غدا لأبيه أو لأمه أو يقولها لزملائه الطلبة أو يضمنها خطبة سياسية يفكر أن يلقيها فى الجامعة . . وهو لا يتعمد كل ذلك . . إنما هو دافع تلقائى من دوافع شخصيته الطبيعية التى كونتها ظروف حياته التى يعيشها . . ولكنه اليوم وهو جالس فى مكتبه لا يستطيع أن يركز عقله على الأوراق أو الموضوعات التى تعرض عليه . . إن صورة ابنه مصطفى وهو مضروب على رأسه ومضمد بالشاش الثقيل تقفز أمام عينيه وتغطى وتحجب عنه سطور الأوراق التى أمامه . . والمناقشة العنيفة التى جرت معه ترن كلماتها فى أذنيه حتى كأنه لم يعد يكتفى

باستعـادة سماعها ، ولكنها تقفز فى خياله كأنها حروف مكتوبة فوق حروف الورق الذى بين يديه . . وكان يقاوم بعنف لينتشل عقله من سيطرة ابنه عليه ويتفرغ به لعمله . . وقد يتفرغ فعلا دقيقة أو دقيقتين ثم لا يلبث أن يعود ابنه مصطفى ويغتصب أفكاره ويجد نفسه مستسلما له . .

وقـد ضاق بجلوسـه فى المكتب وهم أكثـر من مرة أن يقـوم منصرفـا . . لعـله يسـتطيع أن يهدأ قليلا وهـو بعيد عن مركـز مسئولياته . . سيتمشى فى الشارع المطل على النيل ويترك عقله حرا مع أى تفكـير يخطر عليه . . ولكن لا . . إن النـظام الذى وضعه يفـرض عليه ألا يغادر المكتب قبل التاسعة مساء . . وسيبقى حتى التاسعة احتراما للنظام . .

وبعد أن غادر المكتب لم يحاول أن يتجه إلى مكان هادىء يعينه على أن يترك الحرية لعقله وأفكاره . . بل وجد نفسه ملهوفا على العودة إلى البيت . . وهو يحس أنها لهفة على رؤية ابنه مصطفى والاطمئنان عليه . . ولكنـه ما كاد يدخـل البيت حتى توقف مترددا . . إنه لن يسعى بنفسـه إلى ابنـه . . يجب أن يقـاطعه حتى يتركه مقتنعا بأنه غاضب عليه . . ويكفى أن يسمع أخباره من أمه . . ثم إن نظام العائلة لا يفرض عليه أن يرى ابنه فى المساء وقبل أن ينام . . فهو ليس مجبرا على أن يراه بحكم التعود واحترام النظام . . ولكنه ما كاد يقترب بخطواته من غرفة ابنه حتى زايله تردده وتغلبت عليه لهفته . . وفتح البـاب عليه . . وكان مصطفى راقدا على فراشه متيقظا وكفاه تحت رأسه مستندا على الوسادة . . وما كاد يلمح أباه بجانب الباب حتى جذب كفيه من تحت رأسه واستدار راقدا على جنبه يستقبله بظهره . .
وقال الأب وهو يقاوم تهدج أنفاسه :

ـ كيف حالك ؟

وقال الابن وصوته مكتوم بالوسادة :

ـ الحمد لله . .

وقـال الأب وهـو يحاول أن يكون جادا حتى لا يضعف مظهر غضبه على ابنه :

ـ ألا تشعر بآلام فى رأسك ؟

وقال الابن دون أن يلتفت إلى أبيه :

ـ لا . . .

وقال الأب كأنه استكمل كل شخصيته وبدأ يفرضها على ابنه :

ـ خيبت أمل البوليس الذى كان يتمنى أن يسبب لك آلاما عنيفة تقنعك بألا تعود إلى الاشتراك فى المظاهرات .

ولم يرد الابن بكلمة . . ورفع الوسادة الصغيرة وغطى بها رأسه كأنه يرفض مجرد الظهور فى حضرة أبيه . .

واكتفى الأب بأن انسحب خارج الباب وأغلقه وراءه كأنه يريح ابنه من نفسه . . ثم اتجه إلى غرفته . . وما كادت زوجته عفاف تراه حتى بدأت من جديد تروى له تفاصيل محادثتها التليفونية مع زوجة الوزير . . وهو واقف يخلع ثيابه ولا يسمعها . . تائها بأفكاره بعيدا عنها . . وانتهى من ارتداء البيجاما وخرج من الغرفة وزوجته لا تزال تتكلم وتحكى . . واتجه إلى حيث الثلاجة وفتحها . . فقد كان نظام العائلة يفرض على الزوجة أن تحتفظ لزوجها بأطباق طعام العشاء فى الثلاجة لأنه لم يكن له موعد للعودة فى المساء حتى تنتظره . . وطاف

بعينيه فيما تضمه الثلاجة ثم اكتفى بأن مد يده والتقط زجاجة صودا . . إنه لا يريد أن يتناول طعاما للعشاء رغم أنه لا يعتبر نفسه قد تناول طعام الغداء . . فالزوابع الثائرة فى رأسه زحفت على بطنه وكأنها سدت معدته فلم يعد يطيق أن يأكل شيئا . . واتجه إلى المقعد العريض المريح المخصص ليجلس عليه فى الصالة . . وألقى بنفسه عليه وفى يده زجاجة الصودا وهو هائم مع أفكاره . .

إنه قبل أن يلوم ابنه ويحاسبه على ما فعله يجب أن يلوم نفسه ويحاسبها . . إنه منذ أنجب مصطفى وهو يعتبره قطعة منه . . صورة طبق الأصل له . . ربما لأنه أثبت أنه يستطيع أن ينجح ويصل إلى قمة النجاح الذى أراده لنفسه فلا شك أن ابنه ولد ليكون ناجحا هو الآخر . . سينجح ويكون فى منتهى الذكاء ومنتهى قوة الشخصية لمجرد أنه ابنه . . وقد كان مصطفى يشبهه فعلا فى كل ملامح وجهه وفى طوله وعرضه . . بل كانت له حركات تلقائية كأنه ورثها عنه . . فهو مثله كلما ضحك رفع أصبع يده وهرش على أنفه . . كأنما حركة عصبية يثيرها الضحك . . أو كأنه يغطى خجله من نفسه كلما ضحك . . إلى هذا الحد كان يتصور ابنه كقطعة منه . . وبما أنه منذ طفولته تعمد أن يقيم حياة تكفل له النجاح فلاشك أن ابنه أيضا سيعيش حياة النجاح . . أى كان يثق فى مستقبل ابنه ثقة عمياء . . ويعتمد على عقليته وشخصيته اعتمادا كاملا فى تنشئة نفسه بنفسه حتى كان لا يبذل جهدا خاصا من ناحيته فى تربية أو تكوين عقلية ابنه وشخصيته . . بل كان هناك تباعد غير مقصود بينهما . . فكل ما يحتاجه الابن تقوم الأم بتوفيره له . . وكل أسرار وتفاصيل حياته مع أمه لا معه . . وهو أيضا يكتفى بالاطمئنان على ابنه والإلمام بأخباره

بما يسمعه من زوجته . . وكل ما يجمعهما هو اللقاء على مائدة الغداء . . وقد يخطر عليه سؤال فى هذه الساعة يسأله لابنه . . أو يخطر على ابنه حكاية يرويها له . . وإن كان ما يجمعهما هو فرحة كل منهما بلقاء الآخر . . ومتعة التزود بالنظر إليه . . وإن كان الآن يرجح أن فرحة ابنه بالنظر إليه كانت دائما أقل كثيرا من فرحته هو به . . ربما كان ابنه لا يحرص على لقاء فترة الغداء إلا احتراما للنظام العائلى الذى فرض عليه . .

ورفع الأب زجاجة الصودا إلى فمه وارتشف جرعة كبيرة كأنه يحاول أن يخمد بها الزوابع التى تعصف به . . ثم عاد ساهما مستسلما لعصف الزوابع . .

إنه لم يقدر أن شخصية الفرد تتكون وفقا للظروف والحالات التى ينشأ فيها . . لذلك لا يمكن أن يكون لابنه نفس شخصيته ولا نفس اتجاهات عقليته . . لا يمكن أن يرث عنه هذه الشخصية والعقلية حتى لو كان قد ورث عنه ملامح وجهه وخطوط قامته . . فكل منهما قد ولد فى ظروف وحالات تختلف عما ولد فيه الآخر اختلافا كاملا . . لقد ولد هو فى ظروف الفقر وحالات الحرمان بينما ولد ابنه فى ظروف منتهى الغنى وحالات منتهى الشبع . . كان أبوه فقيرا محروما أما ابنه فأبوه - أى هو - ثرى منعم . .

وهو يذكر أنه منذ وعى فقر أبيه بدأ يعود نفسه على تحمل مسئولية نفسه . . أى بدأ يراعى إعفاء أبيه من تحمل مسئوليته عنه . . وكان هذا الإحساس بالمسئولية هو الذى يسيطر على كل فكره وعلى كل حركة من حركاته . . وهو إحساس يربطه باحساسه على ما يمكن أن يمس أباه . . وهو يذكر يوما فى صباه كان واقفا بين صبيان الحارة حول

بائع الدندورمة . . وكل منهم يدفع قرشا ويلتهم الدندورمة المعبأة فى قرطـاس من البسكـوت . . وهـو يذوب مشتهيا ولـو لحسة من الدندورمة . . ولسانه يجرى بين شفتيه يبللهما كأنه يحرضهما على تذوق الـدنـدورمة . . وليس معه قرش يعطيه للبائع . . إن أباه لا يعطيه إلا قرشا واحدا كل يوم خميس حتى يوفر له متعة أجازة الجمعة وقد سبق أن دفع قرشا هذا الأسبوع ثمنا لشراء طبق من حمص الشام تمتع بالتهامه . . فمن أين يحصل على قرش آخر . . وخطر على باله أن يصعد إلى البيت ويدخل المطبخ ويأخذ أحد الأطباق الفارغة ويعود ويعطيه للبائع بدلا من القرش . . لا شك أن الطبق على الأقل يساوى قرشا . . وهو يعلم أن كثيرا من الصبية يأخذون ـ ولا يريد أن يقول أنهم يسرقون ـ شيئا من لوازم البيت ليبادلوا عليها ما يريدون شراءه من البائع . . ولكن . . لا . . إنه لو أخذ طبقا فسيضطر أبوه لشراء طبق آخر يتحمل ثمنه . . وقال لنفسه أنه يمكن أن يعطى البائع هذا الطبق كرهينة مقابل قرطاس الدندورمةويسترده منه فى يوم الخميس القادم بعد أن يدفع له القرش الذى يعطيه له أبوه . . ولكن . . لا . . إنه بذلك كأنه يخدع أباه ويغشه ويخون ثقته فيه ويتحدى حالته . . حالة الفقر . . وكانت النتيجة أن حرمه إحساسه بمسئوليته عن نفسه وعن أبيه من مذاق الدندورمة . . بل إنه من يومها وحتى اليوم يرفض تناول الدندورمة كأنه لا يزال يعتبرها محرضا له على الخروج عن مسئوليته عن نفسه . . ومن يومها كره مجرد مذاق الدندورمة . .

وبعد أن نما وعيه أكثر أصبحت كل مسئوليته منحصرة فى تحقيق هدف واحد . . حتى لو كان هدفا بعيدا . . وهو هدف التخلص من

الفقر . . وكانت الظروف والحالات التى يعيشها تحميه من أن يقدم على تحقيق هذا الهدف بارتكاب أى إثم أو أى اعتداء أو أى خطيئة . . إنها ظروف وحالات لا يظهر فيها أى خاطىء . . ووالده رغم استمرار فقره لم يقدم أبدا على أى خطيئة تمس شرفه وكيانه النظيف . . لذلك فقد نما وهو يؤمن بأن الطريق الوحيد الذى يحقق الهدف، هو طريق النجاح . . وأيضا النجاح النظيف المشروع . . مهما طال هذا الطريق واستغرق من عمره سنوات . . ولذلك فقد كان حريصا على أن ينجح فى كل امتحان من امتحانات دراسته . . كما أصبح يؤمن بأن النجاح لا يقتصر تحقيقه على نيل الشهادات بل يجب أن يتعلم أكثر ويفهم أكثر ويكتشف أسرار الحياة . . وأصبحت أقوى هواياته هى هواية القراءة . . قرأ كثيرا وفى مختلف الموضوعات . . وأصبح مترددا على المكتبات التى يستطيع أن يقرأ فيها مجانا . . وهو يحس وهو يقرأ كأنه يتفرج على خفايا العالم . . لا يفرق بين متعة قراءة كتاب ومتعة الذهاب إلى السينما . . فكلاهما يحقق المشاهدة . . مشاهدة العالم . . وكان هناك دائما ما يثيره ليقرأ أكثر . . لقد سأل نفسه مرة وهو يستمع إلى الراديو . . كيف يصل الصوت من أمريكا إلى مصر . . إن الأصوات لا تضيع ولا تذوب ولكنها تظل معلقة فى الهواء الذى يلف كل العالم إلى أن يلتقطها جهاز خاص وينقلها إلى الأسماع . . فكيف اخترع هذا الجهاز وماهى أسراره . . ووجد نفسه يجرى داخل المكتبات ويقرأ كتبا عن علوم الراديو استطاع أن يكتشف من خلالها كل الأسرار . .

ولم يكن نجاحه فى الامتحانات وإدمانه القراءة هما كل ما أوحى إليه به إحساسه بمسئوليته عن نفسه . . لقد وجد نفسه يريد أن يعرف ويكتشف كل أهل مصر . . ويريد أن يدخل كل المجتمعات ليتفرج

على كل مجتمع منها . . المجتمعات الفقيرة حتى منتهى الفقر . . والغنية حتى منتهى الغنى . . بل يريد أن يكتشف كل أحياء مصر . . كل حى له شخصية تختلف عن شخصية الحى الآخر . . حى الدراسة والحسين . . وحى الزمالك وجاردن سيتى . . ولم يتعود أن يلقى بنفسه على أى فرد أو على أى حى من الأحياء السكنية ولكنه كان ينتهز الفرص المحترمة التى تتيح له أن يعرف كل الناس . . وأكثر من ذلك . . لقد كان يتطلع إلى التعرف بأشخاص القادة الذين يسمع عنهم . . والقادة ليسوا هم السياسيين المحترفين وحدهم . . هناك قادة اقتصاديون . . وقادة من العلماء . . وقادة من الفنانين . . لقد أحس عندما التقى مرة بيوسف وهبى بنفس إحساسه عندما التقى برئيس الوزراء . . وكان أبرز ما وصل إليه هو اكتسابه صداقة كل زملائه الطلبة . . رغم اختلاف طبقاتهم واختلاف اتجاهاتهم . . إن الصداقة تعتبر عنصرا قويا من عناصر الإقناع . . لذلك كان يستطيع أن يقنع بآرائه الطالب الماركسى والطالب الرأسمالى والطالب المتدين . . بل إن شخصيته الهادئة التى كانت تبعده عن الاشتراك فى أى تحرك عنيف رغم آرائه الثائرة كانت تدفع كثيرا من المسئولين عن الطلبة إلى الالتجاء إليه على أمل ان يستعينوا به على تهدئة تحركات الطلبة . . كان ناظر المدرسة يدعوه ويرجوه . . ومدير الجامعة . . بل ووزير الداخلية . . وكل الكبار الذين يمدون أصابعهم داخل مجتمع الطلبة لإثارته أو لتهدئته . . وهو لم يكن أبدا يخضع لأى واحد من هؤلاء الكبار كعميل له . . ولكنه عرف بينهم بالمصارحة الهادئة . . ولم يخف عن واحد منهم رأيه لو كان معارضا له . . لذلك فلم يكن الكبار يعتمدون عليه اعتمادا مطلقا ولكنهم كانوا لا يصبون عليه نقمتهم لأن هدوءه يطمئنهم . . وهو لم يكن يهمه رأى أحد منهم فيه ولكنه كان

يتعلم ويكتشف كيف يفكر كبار المسئولين . . وماهو أسلوب تعاملهم مع الناس وتعامل الناس معهم . .

وكانت هذه الشخصية تمر بها أحيانا نوبات من السخط العنيف . . السخط على الفقر الذى يعيش فيه . . ويكاد يقرر أن يمارس العنف والهدم تعبيرا عن سخطه . . لماذا لا يشترك على الأقل فى مظاهرات الطلبة . . ويقذف الحكومة بالطوب ويحرق سيارات الأغنياء ويحطم كل ما تعرضه الدكاكين مما هو محروم منه . . إن الدوافع السياسية قد تكون حجة لإطلاق العنف ولكن الدافع الواقعى هو السخط على الفقر . . السخط على هذا المجتمع الذى يرضى بأن يعيش فيه أناس جوعى يقتلهم الجوع وأناس شبعانون إلى حد أن تقتلهم التخمة . . ولكن رضوان كانت له دائما القدرة على التغلب على نوازع السخط . . لأنه مؤمن بالطريق الوحيد الذى يخلصه من الفقر . . وهو طريق النجاح المشروع . . واستسلامه لعوامل السخط قد تسد أمامه هذا الطريق ويبقى دائما فقيرا . . كما أنه مقتنع بأن دوافع الحركة الوطنية السليمة لا يمكن أن تنطلق من السخط ومن الفقر . . ولكنها تنطلق من الفكر الذى توافرت له الدراسة، ووصل إلى القدرة على التقدير الواقعى السليم . . وكل الأحداث السياسية بما فيها الثورات الوطنية لم يدفع إليها ولم يتحمل مسئوليتها الفقراء الساخطون . . حتى لو كان السخط هو الذى يوفر لها أساس قوتها . . ولكنها كلها أحداث وثورات دفع إليها وخطط لها المفكرون الوطنيون . . وكان الزعيم مصطفى كامل أو سعد زغلول أو غيرهما من قادة الأحداث السياسية من الأغنياء الثراة . . حتى لو كانوا من الساخطين فلم يكن سخطهم سخطا شخصيا على الفقر . .

ولذلك يجب أن يحرر نفسه من سخطه على فقره ويحرر فكره من سيطرة إحساسه بهذا الفقر . . حتى يتفرغ لتحقيق سلامة تفكيره الوطنى . .

ولم يكن وهو يحلم بالارتفاع فوق الفقر يحصر أحلامه فى تصور نفسه . . بل كانت أحلاما تشمل أباه وأمه وأخواته البنات . . إن الفقر ليس حالة فردية ولكنه حالة اجتماعية أقرب ما فيها إليه هو حالة عائلته . . وهو يحلم برفع أبيه عن الفقر كأنه يتمنى أن يعوضه عما عاناه من الإنفاق عليه حتى وصل به إلى الجامعة . . ويحس بمسئوليته عن أمه وأخواته البنات كما كان يحس بمسئوليته عن نفسه . . وقد كان يحمل هذه المسئولية داخل مسئولية أبيه . . ولكنه سينفرد يوما بهذه المسئولية ويحقق بها ما لم يستطع أبوه أن يحققه لهم . . وقد قرر أن يحمل هذه المسئولية منذ اليوم الأول الذى أصبح فيه خريجا جامعيا . . من يومها قرر ألا يحمل أباه أى مسئولية مالية عنه أو عن العائلة . . وعلى الأخص مسئولية الإنفاق . . إنه لم يعد يحمل أباه مسئولية إنفاق مليم واحد . .

ولم يسع بعد تخرجه فى الجامعة ليكون موظفا فى الحكومة . . إن أباه عاش فقيرا محروما لأنه كان موظفا فى الحكومة . . ربما لو كان قد بدأ حياته حرا فى أسواق الحياة لما فرض عليه الفقر . . . حتى لو كان قد بدأ دون أن يتم تعليمه وكمجرد خادم كما بدأ فى الحكومة . . إن الوظائف الحكومية هى أضيق مجال للنجاح وللكسب الحلال . . بل ربما كانت أضيق مجال لإطلاق الفكر البناء وتكوين ذكاء الفرد فى التعامل مع الحياة . . وهو منذ البداية يكره الوظيفة الحكومية ويحتقرها على مختلف درجاتها . . ورفض فى إصرار أن يعين معيدا فى الجامعة . . فقد كان من أوائل الخريجين الذين يعهد إليهم بالتدريس

للطلبة . . ولكن المعيد حتى بعد أن يصبح مدرسا ثم أستاذا جامعيا هو موظف حكومى . . وهو لن يقبل على نفسه أبدا أن يكون موظفا حكوميا إلا إذا كتب عليه الله الفشل . .

ومنذ كان طالبا فى الجامعة وهو واثق أنه سينجح فى الامتحان وسيكون من أوائل الخريجين لذلك فقد سبق تخرجه تفكيره فى تحديد مستقبله . . واستطاع بشخصيته الهادئة المهذبة أن يقيم اتصالات بكل من يطمع فى الاعتماد عليهم وما يوفر له حق الاختيار بين طرق الحياة . . واختار عقب تخرجه أن يعين محاسبا فى شركة المنسوجات . . إنها شركة حرة وليست حكومية . . وهى شركة كبرت وامتدت وتحقق أرباحا ضخمة . . وهو يريد أن يدرس وهو فى داخلها كيف تستطيع شركة صناعية تجارية أن تحقق كل هذا النجاح . .

وقد عين فى هذه الشركة بمرتب خمسة وعشرين جنيها فى الشهر . . يكاد يكون أكثر من ضعف مرتب أبيه الذى مضى عليه أكثر من ثلاثين عاما وهو موظف فى الحكومة . . وقد وضع فى جيبه عشرة جنيهات . . إنه فى حاجة إلى مبلغ كبير لتغطية حاجته فى سعيه نحو مستقبله . . ثم وضع باقى المرتب بين يدى أمه . . فقد خجل من أن يضع نقودا فى يد أبيه . . ورغم فرحة أمه والعائلة كلها بهذا الدخل الجديد الذى جاءهم به الابن . . إلا انه لم يدر حوله أى جدال ولا تغيير فى وضع هذا الابن بينهم . . ولا حتى بالإفاضة فى شكره . . ووالده لا يزال يعاتبه ويلومه فقد كان يريد أن يرى ابنه موظفا فى الحكومة . . الحكومة أبقى يا بنى . . وينحنى الابن يقبل يد والده ويقول : اطمئن يا بابا . .

وقد استطاع بسرعة أن يكتسب ثقة أصحاب الشركة وارتقى فى

عمله واتسعت مسئولياته وارتفع مرتبه حتى تعدى المائة جنيه فى الشهر . . ووصل إلى أن أقام لنفسه شركة تصدير واستيراد خاصة . . وكلما ارتفع عن الفقر رفع عائلته معه . . وانتقل البيت من حارة نصير بالعباسية إلى الشارع الزاهى بالزمالك . . وكان مصرا على أن يعيش دائما بجانب أمه وأبيه . . حتى بعد أن تزوج وكانت أمه قد ماتت عاش معه أبوه فى بيت الزوجية . . وبعد أن مات أبوه أقام له جنازة كبيرة واشترك كبار الشخصيات فى تشييع جثمان الرجل الفقير الذى كان خادما فى الحكومة يقف فى الممرات أمام أبواب الموظفين . . وهو يشيع أباه إلى قبر فخم هو الذى كان قد أقامه . . ويسير فى الجنازة خلفه وهو فخور لأن أباه مات وهو ليس فقيرا محروما من إحساس المجتمع به . . إن أرقى شخصيات المجتمع تسير وراء جثمان أبيه . .

هذه هى شخصية رضوان الدسوقى . . وهذه هى الظروف والأحوال التى تكونت فيها شخصيته . .

أبدا . . لا يمكن . .

إنه منذ ولد وهو لا يحس بأى نوع من المسئولية . . ولا تدفعه أى ظروف أو أحوال تحيط به إلى هذا الاحساس بالمسئولية . . يكفى أن يصيح واء . . واء . . حتى تستجيب له الدنيا كلها ويصل إلى كل ما يريده . . فأبوه لم ينجبه إلا بعد أن أصبح ثريا . . وشخصية أبناء الاثرياء تختلف اختلافا كاملا عن شخصية أبناء الفقراء . . إن ابن الثرى لا يحس بأى نوع من الحرمان حتى يحاول أن يستغل كل طاقته البشرية فى التخلص منه . . يستغل على الأقل عقله الذى يكون شخصيته حتى لا يستمر محروما . . إن ابنه مصطفى لم يكن فى حاجة إلى عقله ولا إلى مجرد التفكير فى أى مطلب من متطلبات الحياة . .

وتنهد رضوان الدسوقى تنهيدة حزينة . . ربما كان يجب أن يلوم نفسه . . فهو أيضا لم يحمل مسئولية بناء شخصية ابنه مصطفى . . لقد ترك أمه منذ البداية هى المسئولة عنه . . هى التى تزوده بكل الكلمات والصور التى تربى بها عقله . . ولكنها لم تكن تربى فيه شيئا أو تبنى منه شيئا . . كانت كأنها جارية له . . يأمرها ولو برمشة عين فتطيع فورا . . كل الأمهات هن جوار لأبنائهن وخصوصا الأولاد فهن يستسلمن لهم كأنهم أسياد . . وهو كأب كان فرحا بابنه فرحة كبيرة منذ أنجبه . . ولكنه لم يكن يتعمد أن يعبر عن هذه الفرحة بالاهتمام بتربيته وتتبع بناء شخصية هذا الابن . . كانت كل فرحته محصورة فى زهوه وافتخاره بأنه أنجب ابنا لن يعيش الفقر الذى عاشه أبوه . . ولن يعانى الحرمان الذى عاناه أبوه . . وكان يسرف فى الاستجابة لمطالب هذا الابن ويسخو فى الإنفاق عليه . . فهكذا يجب أن يعيش أبناء الأغنياء . .

وكان دائما مطمئنا اطمئنانا كاملا على مستقبل ابنه . . إنه هو نفسه حقق مستقبلا فى منتهى النجاح ولا شك أن ابنه سيرث هذه القدرة على النجاح . . إنه شخصية مستمرة لشخصيته هو . . وإن كان أحيانا يصدم بفشل يلحق بابنه أو بتصرفات شاذة له تتعارض مع اطمئنانه إلى مستقبله . . ولكنه يعود ويقنع نفسه بأن ابنه لم يفشل لأنه غير قادر على النجاح . . ولم يقع فى هذا الشذوذ لأن طبيعته شاذة . . أبدا . . فمصطفى إذا كان يرسب فى الامتحانات المدرسية والجامعية فلمجرد أنه ليس متعجلا النجاح لا لأنه لا يستطيع النجاح . . أما هو فقد كان ينجح دائما لأنه كان متعجلا النجاح حتى يتخلص من الظروف والأحوال التى يعيشها . . أما ابنه فهو لا يعيش ما يدفعه إلى تعجل النجاح . . إنه يعيش مطمئنا راضيا عن كل ظروفه وأحواله

ومن حقه ألا يتعجل النجاح فى المدرسة ويشغل نفسه بدراسة الحياة نفسها . . والخوض بنفسه فى داخل كل ما فيها . . إنه لا يلعب . . ولا يستهتر . . ولكنه يدرس الحياة . . ودراسة الحياة أهم من الحصول على شهادة مدرسية لا تفرقه عن قيمة باقى الطلبة . . هكذا يعيش كل أولاد الطبقة الثرية . . فكل منهم لديه الوقت الكافى ليتمهل فى الحصول على أى شهادة دراسية . مطمئنا إلى أن معه شهادة الحياة . .

وزفر رضوان الدسوقى أنفاسا ساخطا على نفسه . . لقد تعود أن يلتمس الأعذار لفشل ابنه مصطفى وانحرافاته . . ويختلق منطقا كاذبا حتى يظل محتفظا بثقته فيه واطمئنانه إلى نجاحه فى بناء مستقبله . . وليعترف بأن السبب المباشر لكل ما يسببه ابنه له من متاعب وهواجس هو أنه أهمل تربيته وإعداده للمستقبل . . أهمل فى بناء شخصية هذا الابن وتكوين عقليته . . وليس هناك سبب لإهماله إلا إنه يعطى كل نفسه وكل حياته لعمله . . ولتحقيق مزيد من نجاحه فى تكوين ملايين الجنيهات والدولارات . . دون أن يعطى من نفسه أو من حياته ما تحتاج إليه عائلته ومن بينها ابنه . . إن كل ما يعطيه هو بعض ما يدره عليه هذا النجاح من هذه الجنيهات أو الدولارات . . وغروره بنفسه يشمل غروره بعائلته وبابنه . .

ورفع رضوان زجاجة الصودا وسكب ما بقى منها فى جوفه . . لعله يهدأ . . ثم قام يسير وزوبعته النفسية تترنح به إلى أن وصل إلى فراشه وألقى بنفسه بجانب زوجته . . لعله ينام . .

★ ★ ★

وفى صباح اليوم التالى ترك فراشه وكانت زوجته قد تركته قبل أن يستيقظ كما تعود . . وبدأ يعد نفسه للخروج إلى مكتبه . . وكان فى

لهفة للاطمئنان على ابنه . . كيف أصبح برأسه المضروب . . ولكنه تعمد ألا يسأل عنه . . أو يذهب إلى غرفته ويفتح الباب عليه . . يجب أن يظل محتفظا حياله بمظهر غضبه وعدم رضائه عنه . . معتمدا على أن يلتقى به صدفة دون أن يسعى إليه . . أو تحدثه زوجته بأحواله دون أن يسألها عنه . . ولكن مرت الدقائق وانتهى من ارتداء ثيابه وتناول إفطاره وهو لا يرى ابنه ولا يسمع صوته ولا تحدثه زوجته عنه . . واضطر أن يسألها وهو يتظاهر باللامبالاة :

ـ كيف أصبح مصطفى ؟

وقالت زوجته عفاف وهى منقبضة فى استسلام :

ـ خرج مبكرا . .

وارتعش كأن مفاجأة قد صدمته وصاح :

ـ خرج ورأسه مضروب ولا يزال ملفوفا ؟ !

وقالت الزوجة وهى تتنهد فى حسرة :

ـ أكد لى أنه سليم .

وعاد الأب يصيح :

ـ وإلى أين ذهب ؟

وردت الأم فى استسلام :

ـ لم يقل لى . . وقد أخذ منى مائة وخمسين جنيها قبل أن يخرج . .

وصاح الأب :

— ولماذا أعطيه ؟

وقالت وصوتها يتهدج :

— لقد طلب فى إلحاح وإصرار . . ولم أستطيع أن أصده عما يريد . . ولكنه كان يطلب خمسمائة وأقنعته بأن يكتفى بمائة وخمسين . .

وقال الأب كأنه يسخر من نفسه :

— وطبعا لم يقل لماذا يريد كل هذا المبلغ . .

وفتحت الأم عينيها إلى آخرهما مبحلقة فى وجه الأب كأنها تحذره من أن يتهم الابن أى اتهام وقالت :

— لقد قال لى أنه فى حاجة إلى هذا المبلغ . . وابنى صادق دائما ولا أستطيع أن أحرمه مما يحتاج إليه . .

وقام الأب من جانب مائدة الإفطار . . وخطا خطوات سريعة نحو الخروج من البيت دون أن يودع زوجته بكلمة . . وهو يردد :

— ربنا يستر . . ربنا يستر . .

وهو حائر تعذبه الحيرة . .

إنه لا يدرى كيف ينشأ أولاد الأغنياء وتتكون شخصياتهم . . لأنه هو نفسه نشأ وتكونت شخصيته وهو من أولاد الفقراء . .

الفصل الخامس

ترك مصطفى البيت مبكرا بعد أن دس فى جيبه المائة والخمسين جنيها التى أخذها من أمه . . وهو يخطو خطوات عاجلة عنيفة كأنه يضرب الأرض بقدميه . . لم يكن يتلكأ فى خطواته ويتمايل معها كما كانت عادته . . وحتى عندما ركب سيارته لم يركبها وهو يبتسم بينه وبين نفسه متباهيا بهذه السيارة التى تطير به . . ويبحلق بها فوق البشر الذى يسير على الأقدام . . أو يبتسم وهو مقبل على متعة القيادة التى أدمنها . . لقد ألقى بنفسه أمام عجلة القيادة وهو متجهم وفكره مشغول بآراء جادة يحس كأنها آراء فى منتهى الخطورة . . ورأسه مربوط بالشاش الثقيل ولا يزال يضج برنين الآلام التى خلفتها الضربة . . ولكن أفكاره متمكنة منه بقوة تتغلب على ما يمكن أن يحس به من آلام . . إنها أفكار جديدة عليه ولم تطرأ على ذهنه أبدا منذ أحس بالوعى وحتى بعد أن التحق بالجامعة وعاش فيها بين الطلبة ثلاثة أعوام وهو متباعد عن زملائه . . أو متعاليا عليهم . . إنها أفكار سياسية تنطلق من إحساس وطنى جارف . . ربما بدأت تستحوذ عليه بعد أن بدأ يجتمع بزملائه فى بوفيه الكلية . . بل إنه من يومها وهو يحس أنه طالب فى الجامعة بعد أن كان يترفع عن اعتبار نفسه مجرد طالب جامعى . . ربما كانت الجامعة لا تحقق شخصية الطالب فيها إلا بعد أن يستوعب إحساسه بمسئوليته السياسية الوطنية . . إن الجامعة لا تمنح الطالب مجرد الدروس العلمية المقررة ولكنها تمنحه

الشخصية التى يستطيع بها أن يتحمل المسئولية العامة عن كل ما يجرى فى الوطن أو ما يتعرض له . . مسئولية سياسية . . وهو قد بدأ يحس بهذه المسئولية وبدأ يحس بأنه طالب جامعى . .

ولم يكن مما يدور فى فكره مراجعة النقاش الحاد الذى جرى بينه وبين والده . . أنه متباعد دائما عن أبيه . . وتعود أن يكون حرا حتى عن أبيه . . بل إنه اليوم يحس بشخصية أبيه أكثر تباعدا عنه . . بل لقد طرأ عليه إحساسه بأن أباه مليونير . . أى شخصية تنتمى إلى عالم آخر غير عالم الغلابة الذى يعيش فيه أغلبية زملائه الطلبة . . وهو حتى الأيام القليلة التى مضت لم يكن يقدر أن أباه مليونير . . يراه شخصا طبيعيا ويعيش معه مجتمعا طبيعيا كأن كل البشر من أصحاب الملايين ولا يمثلون طبقة شاذة بين طبقات المجتمع الإنسانى . .

المهم أنه لم يهتم بأن يشغل فكره بماجرى بينه وبين أبيه من مناقشة . . وكان كل ما يسيطر عليه هو مراجعة ما سمعه فى مظاهرة الطلبة أمس من هتافات . . إن الهتاف لم يكن قاصرا على رفض رفع الأسعار . . وخصوصا رفع سعر رغيف العيش . . كأن المظاهرة لم تكن لحل موضوع الغلاء فحسب . . فقد كانت الهتافات تشمل مواضيع سياسية أخرى لم يكن يخطر على باله أنها يمكن أن تكون مواضيع يمكن أن تثير ثورة . . لقد كان الطلبة يهتفون . . يا أمريكا لمى فلوسك بكره الشعب يدوسك . . وكانوا يهتفون . . الصهيونى فوق ترابى والمباحث على بابى . . وهتفوا . . إحنا الطلبه مع العمال ضد تحالف رأس المال . . وهتفوا . . إحنا الطلبه مع العمال ضد حكومة الاستغلال . . و . . وكثير من الهتافات حول موضوعات لم تكن تخطر على باله ولم يكن يتصور أنها يمكن أن تثير الطلبة . . وربما

لانه لم يكن يهتم بالموضوعات السياسية ولا يشغل رأسه بها . . وقد مضى ليله كله بعد أن فوجىء بهذه الهتافات يحاول فهمها . . ويحاول أن يحدد لنفسه موقفا منها . . وخطرت على ذهنه عشرات الأفكار وهو تائه بينها . . وهو لا يزال يفكر . .

إلى أن وصل إلى الجامعة . . وركن سيارته بعد أن رأى البوليس يحاصر كل الكليات . . وسار على قدميه حتى باب كلية الهندسة فصاح فى وجهه عسكرى واقف على الباب . . لعله عسكرى مخابرات فهو يرتدى ملابس مدنية وليست عسكرية .

وقبل أن يهم مصطفى بمجادلته وهو يعلم أنه لم يتعود أن يحمل كارنيه الجامعة معه صاح ضابط البوليس الواقف قريبا :

ــ دعه يا عسكرى . .

ثم تقدم الضابط بنفسه وصافحه قائلا فى رقة :

ــ صباح الخير . . تفضل يا أستاذ . .

لعله عرفه . . وعرف أنه ابن الشخصية الهامة المليونير رضوان الدسوقى . . أو لعل وزير الداخلية بعد أن حادثت أمه زوجته أصدر أمرا لرجاله بأن يراعوا وجود ابن رضوان الدسوقى بين الطلبة . .

وكانت الكلية مزدحمة بالطلبة رغم الوقت المبكر . . وشاهدته نهى من بعيد فجرت إليه وقالت له وعيناها متعلقتان برأسه الملفوف بشاشه :

ــ لماذا خرجت وجئت . . إننا متأكدون أنك فى حاجة إلى الراحة . . وكنا ننوى أن نزورك فى البيت للاطمئنان عليك . .

وقال مبتسما وهو يحتضنها بعينيه :

ــ لم تعد لى راحة إلا معكم . .

ورفع يده يضغط بها رنين الألم ثم تقدم نحو الزحام المتجمع فى البوفيه . . وقام محيى الدين عبد السلام يستقبله فرحا :

ــ أهلا بالبطل . .

واندفع إليه الطالب فتحى إبراهيم واحتضنه وأخذ يقبله ثم قال :

ــ دعنى أقبل رأسك حتى أتبارك بها . . كل ضربة وأنت طيب . .

وعاد محيى الدين يصيح :

ــ هل سمعت بالخبر . .

وقال مصطفى الضعيف الذى تنهكه آلام رأسه :

ــ أى خبر ؟

وصاح محيى الدين كأنه يزغرد بإلقاء خطاب سياسى :

ــ لقد عدلت الحكومة عن رفع سعر الرغيف . . أو رفع أى سعر . . أوقفنا موجة الغلاء . . والفضل ليس لنا وحدنا . . لقد قامت جامعة عين شمس بمظاهرات أعنف . . وجامعة الإسكندرية . . والمنصورة . . وجامعة أسيوط . . وكل الكليات والمدارس حتى أطراف الصعيد . . كما أن العمال . . حتى عمال المؤسسات الحكومية . . قاموا بمظاهرات . . لقد كانت ثورة استطاعت أن تفرض مطالبها على الحكومة . . ولكن بقى شىء . .

إن الحكومة لم تفرج حتى الآن عن المعتقلين وإن لم تفرج عنهم اليوم فقد قررنا أن نقوم بالتظاهر غدا ونفرض عليها الإفراج عنهم . .

واستدار محيى الدين إلى باقى الطلبة مستمرا فى الكلام . . ومصطفى واقف يحاول أن يستوعب ما يقول ونهى بجانبه وهى متعلقة بالنظر إلى رأسه الملفوف فى الشاش كأنها تربت عليه بعينيها . . وقالت ضاحكة :

ــ لو كنت لم تدفعنى بعيدا عن عصا البوليس لكنت أنا الآن التى تزهو وتتعايق برأس مربوط . .

واكتفى مصطفى بالرد عليها بابتسامة فاترة . . ، لقد شدت مقعدا من تحت طالب كان يجلس عليه لتجلس عليه مصطفى حتى يرتاح . . وظلت تحاول إضحاكه بكلماتها كأنها تتعمد التخفيف عنه . . ولكن مصطفى لا يضحك وكأن فكره مشغول بعيدا عنها . . إلى أن توقف محيى الدين عبد السلام فترة فقال له مصطفى هامسا :

ــ هل أستطيع أن أنفرد بالحديث معك . . إنى فى حاجة لأن أعرض عليك بعض أفكارى . .

وتلفت محيى الدين حوله كأنه يطمئن على الطلبة المحيطين به قبل أن يبتعد عنهم لحظات . . ثم صحب مصطفى ووقف بجانب الشجرة القريبة من البوفيه . . ولحقت بهما نهى . . كأنها لا تسمح لأحد بأن ينفرد بمصطفى بعيدا عنها . . إنها هى المسئولة عنه . .

وانطلق محيى الدين قائلا لمصطفى وقد أصبحا تحت الشجرة :

ــ هل عرضت الموضوع على والدك . . هل سيتدخل بنفسه حتى يجمعنا مع البوليس . .

وقال مصطفى وهو يواجه محيى الدين بنظرة إصرار :

ــ ارجوك أن تعفينى من أى اتصال بوالدى فيما يخصنا . . إنى أنا الذى بينكم وليس والدى . .

وقال محيى الدين فى لهجته الخطابية :

ــ إننا لا نطلب منه خدمات خاصة . . إننا نطالبه بالسعى لدى الحكومة حتى يقنعها بمراعاة المبادىء العامة التى تقوم عليها حقوقنا فى إطلاق آرائنا . . المبادىء التى تحرم على البوليس الاعتداء علينا . .

وقال مصطفى فى حدة :

ــ إن أبى لم يتعود أن يتدخل أو يسعى لدى الحكومة خارج ما يخص أعماله . .

وصاح محيى الدين :

ــ ولكن الحكومة اعتدت عليه باعتدائها على ابنه . . أى الاعتداء عليك . . وقد يقدر أن كل الطلبة أبناؤه . . وهو يحميهم عندما يحمى ابنه . . ابن رضوان الدسوقى . . هو ابن أى مواطن . .

وقال مصطفى فى عنف كأنه يهدد :

ــ يجب أن تعتبروا أنى معكم بشخصى . . حتى أبقى معكم . . أما إذا اعتبرتمونى مجرد ابن الرجل المشهور . . رضوان الدسوقى فإنى مضطر أن أبتعد عنكم . . وأنا لا أريد من أبى أن يحمينى كما أنى لا أفكر فى حمايته . .

و قال محيى الدين كأنه يتراجع معتذرا :

ــ طبعا إننا لا نعرف إلا أنت . . ولا يهمنا إلا أنت . .

بل إنك منذ وقفت بيننا ونحن نعتبرك شخصا آخر غير كل ما نعرفه عن أبيك . . وإن كنت لا أخفى عنك أننا فوجئنا بأن هذا الابن من هذا الأب . . والمهم الآن . . لقد قلت لى أنه قد طرأت آراء جديدة على أفكارك . .

وابتلع مصطفى ريقه كأنه يسترجع هدوءه بابتلاع ذكر أبيه . . وقال :

ــ إن المظاهرة التى قمنا بها أمس لم تقتصر على الطلبة بعدم رفع الأسعار . . وقد سمعت هتافات تنادى بمطالب وطنية أخرى كثيرة . . أنا نفسى لم أكن أفكر فيها . . بل إنى لا أفهم موقف الطلبة منها . . وماذا يريدون . . حتى أريد معهم . .

وقال محيى الدين مقاطعا :

ــ إنها كلها موضوعات لا تكف عن مناقشتها . . وستفهمها بكل تفاصيلها بعد أن بدأت تشترك معنا فى المناقشات . .

وقال مصطفى فى حماس :

ــ أنا لا أقصد أن أفهمها وحدى . . بل أقصد أن يفهمها كل أفراد الشعب حتى يتخذ منها موقفا واحدا يحقق وحدة كاملة كوحدتنا فى مظاهرات الأمس التى فرضت على الحكومة العدول عن رفع الأسعار . . والصحف التى من المفروض أن تكون مسئولة عن تنوير الشعب بكل ما يمس الوضع الوطنى لا تبيح عرض هذه المناقشات على صفحاتها . . بدليل أنى فوجئت بهذه الموضوعات رغم أنى أقرأ الصحف . . أحيانا . .

وقاطعه محيى الدين ساخرا :

— لقد حاولنا أن ننشر آراءنا فى صحف الحائط التى تعلق على جدران الكلية . . وكنا قد فرحنا بحصولنا على حق تعليق هذه الصحف وبدأنا نعتمد عليها فى تكوين المجتمع الطلابى . . ولكن البوليس بدأ ينزع هذه الصحف المعلقة ويمزقها . . ورغم أنهم يدعون أن الخلافات بين الطلبة هى التى تدفع البعض لتمزيق صحف البعض الآخر . . إلا أنه لا شك فى أن البوليس هو الذى يأمر بتمزيقها . . بدليل أنه لا يمزق إلا الصحف التى تحمل المعارضة الصريحة ويترك الصحف المهادنة سليمة . .

وانطلق مصطفى قائلا فى حماس :

— هناك طريق آخر لنشر آرائنا . .

وعاجله محيى الدين قائلا فى دهشة :

— أى طريق ؟

وقال مصطفى منطلقا مع حماسه :

— المنشورات . . لقد قضيت الليل أفكر فى وسيلة أفهم بها الشعب كله . . فلم أجد وسيلة إلا إصدار المنشورات . . التى تعدنا لاتخاذ أى موقف . .

وقال محيى الدين كأنه فوجىء :

— هل تريد أن نوزع منشورات . . إنك تتعمق بسرعة فى تحريك المسئولية الوطنية رغم أننا نعتبرك صديقا جديدا علينا . . ولكنها فكرة تحتاج إلى إعداد طويل . . ولنؤجل المناقشة . . لنلتق بعد أن نخرج فى منزل فتحى إبراهيم . . ونتفق على ما يمكن أن نفعله . .

وقال مصطفى فى عجلة :

— سأنتظر بسيارتى بعيدا عن باب الكلية حتى نذهب معا . .

وقال محيى الدين فورا :

— لا . . لنذهب فرادى حتى لا نلفت نظر البوليس ونثير اهتمامه بنا . .

وخرج مصطفى من الكلية بعد انتهاء موعد الدراسة . . وهو يسير بجانب نهى كما هى العادة . . وسار بها صامتا ونهى هى التى لا تتوقف عن الكلام . . وفى منتهى الحماس لمشروع إصدار المنشورات . . إلى أن وصل إلى مكان سيارته ووقف بجانبها وهو ينظر إلى نهى دون أن يتكلم . . وقالت نهى وهى تسدل جفنها كأنها فى حياء :

— سأركب معك مادمنا ذاهبين معا إلى بيت فتحى إبراهيم . .

وكانت المرة الأولى التى تركب نهى بجانبه فى سيارته ... وهو سعيد وفرح بها . . وانطلق طول الطريق يتحدث ويروى ما تأثر به من مظاهرة الأمس وما بدأ يتكون له من آراء . . وفرحته بها تتغلب على رنين الصداع الذى لا يزال يرن فى رأسه . . ونهى تقاطعه كثيرا وتتكلم أكثر كأنها تقاوم اعتداءه على حقها فى الكلام . . وإن كانت ترفع عينيها بين لحظة وأخرى إلى رأسه الملفوف بالشاش كأنها حريصة على استمرار اطمئنانها عليه . .

ووصلا إلى بيت فتحى إبراهيم . . وكان فتحى نفسه قد سبقهم إليه . . ثم وصل محيى الدين عبد السلام بمفرده . . ثم لحقه اثنان

آخران من أفراد شلة البوفيه . . مرسى ومرتضى . . واكتمل عدد المجتمعين . . وقال محيى الدين فى هدوء :

— إن منشورات كثيرة يصدرها طلبة . . وكل منشور ينسب إلى حزب من الأحزاب أو هيئة من الهيئات . . حتى حزب الحكومة يصدر منشورات . . ونحن لسنا حزبا ولا هيئة إنما نحن فقط مجموعة من الأصدقاء تجمعنا وحدة الرأى . . فما هى الشخصية التى يمكن أن يعبر عنها منشور نصدره . . هل نعتبر أنفسنا حزبا أو هيئة منظمة ؟ !

وقال فتحى إبراهيم :

— لماذا لا نوقع منشوراتنا بكلمة أصدقاء . . إن صداقتنا تشمل أفراد الشعب كله . .

وقال مصطفى وهو جاد كأنه يحمل المسئولية كاملة :

— إنك تعرف كل الطلبة المسئولين عن كل الأحزاب وكل الهيئات مع اختلاف كل الاتجاهات . . فلماذا لا تحاول إقناعهم بأن نصدر منشورات تعبر عن كل طلبة الجامعة رغم اختلافاتهم . . ونوقعها بتوقيع يعبر عنا كلنا . .

وقالت نهى كأنها تؤيده وهى تنظر إليه معجبة باقتراحه :

— إننا نريد أن تصدر منشورات تعبر عن رأى الشعب لا عن رأى حزب . .

وقال محيى الدين عبد السلام وكأنه حائر :

— إنى لم أتعود على كتابة المنشورات ولا أدرى كيف تكتب . .

وقال فتحى إبراهيم :

— أكتبه أنا . . لقد سبق أن كتبت منشورات . . بل إن مذكراتى الخاصة التى أحرص على كتابتها كل يوم تعتبر كأنها منشورات يومية . .

وانطلقت نهى صائحة :

— إنى ولو أنى التحقت بكلية الهندسة إلا أنى معروفة بأنى أديبة . . وقد تعودت أن أكتب القصص . . والمنشور القوى الذى يثير الناس هو المنشور الذى يروى قصة . . قصة العذاب الذى نعانيه والظلام الذى يزحف على نهارنا . . و . . .

وقاطعهاالطالب مرسى كأنه لم يتأثر ببلاغتها وقال :

— المفروض أن نتفق على الموضوع الذى يعرض فى كل منشور . . ثم يكتبه كل من يعتقد فى نفسه أنه يستطيع الكتابة . . ثم نجتمع ونراجع كل ما كتب ونتفق على ما يطبع منه . .

وقال محيى الدين وكأنه لا يزال حائرا :

— إنى موافق على ما يقوله الأخ مرسى . . ولكن كيف تطبع المنشورات . . وكيف . .

وقال الطالب مرتضى :

— إن زميلنا لويس رمزى يملك والده مطبعة تجارية صغيرة . . ويستطيع أن يطبع لنا المنشورات سواء بموافقة والده أو خفية عنه . . وأنا واثق فى وطنية لويس . . إنه أبعدنا تطرفا . .

وقال محيى الدين :

— مهما كان فالطباعة تحتاج إلى تكاليف . . إلى مبالغ . .

وانطلق مصطفى قائلا ولهجته أقرب إلى لهجة رجل أعمال يتعامل مع مشروع من مشروعاته :

ــ إننا نريد أن تزدحم البلد بمنشوراتنا . . وتنتشر بين كل الناس . . وأن نطبع من كل منشور الآلاف إن لم تكن ملايين النسخ . . وأنا مستعد لتحمل كل التكاليف . .

ومد يده فى جيبه وأخرج مبلغ المائة والخمسين جنيها ووضعها على المائدة أمام محيى الدين وهو يقول :

ــ هذا مقدم لبدء العمل . . ومستعد أن أقدم أكثر . .

وساد صمت أقرب إلى الوجوم بين أفراد المجتمعين وعيونهم تبحلق فى الأوراق المالية التى وضعت أمام عيونهم كأنهم مذهولون . . وقال محيى الدين بعد أن ابتلع ريقه وهو ينظر إلى مصطفى كأنه يلومه . .

ــ إننا لا يمكن أن نصدر منشورا ينسب الفضل فيه إلى واحد منا فقط . . إننا يجب أن نعمل بمسئولية واحدة مشتركة . . وأرجوك أن تسحب هذه الأوراق المالية وتعيدها إلى جيبك حتى لا تغرينا بها . . وسنحاول أن نجمع تبرعات من أصدقائنا الطلبة . . كل على حسب قدرته . .

وابتسم مستطردا . .

ــ ولا نمانع فى أن تكون تبرعاتك هى أضخم التبرعات . .

ومدت نهى يدها والتقطت الأوراق النقدية من على المائدة ودستها فى جيب مصطفى وهو مذهول . . كأنه صدم بصدمة لم تكن تخطر على باله . .

ثم قفزت نهى قائلة :

ــ عن إذنكم . . يجب أن أعود إلى بيتى . .

ومصطفى يودعها بعينيه حتى الباب . . وهو رغم أنه لا يزال فى ذهوله يتذكر أنها زوجة منظمة لا يمكن أن تهمل موعد عودتها إلى بيتها . . وزوجها . .

واستمرت المناقشات ساعة حول موضوع المنشورات . . ومصطفى لم يعد يتكلم وهو يحس كأنه فشل فى مشروعه . . لقد كان مشروعا قائما على أن يخص نفسه بمسئولية رأس المال . . ولكن زملاءه يريدونه مشروعا شعبيا يعتمد على قروش الشعب لا على ملايين أبيه . . ورغم ذلك فهو مقتنع بالاستمرار فى التجاوب مع زملائه والتضامن معهم . كتجربة انتظار النتيجة . . وإلى أين يصل به هذا الطريق الذى يخطو فيه . .

وقام مصطفى منصرفا وأصر فتحى إبراهيم على توصيله . . ووقف معه أمام السيارة يحتضنها بعينيه ويتحسس جدرانها بيديه كأنه يغازل فتاة أخذت لبه . . وقال :

ــ هل يمكن أن أقود لك السيارة حتى بيتك . . لأريحك وأنت لا تزال ملفوف الرأس . .

وقال مصطفى وهو يجلس أمام عجلة القيادة :

ــ شكرا . . إنى يمكن أن أتحمل القيادة . . سلام عليكم . .

وانطلق بالسيارة بينما إبراهيم واقف يبتلع شهوته التى تثور كلما رأت عيناه سيارة يتمناها . . شهوة قيادة السيارات . .

وكان الثلاثة الآخرون لا يزالون فى داخل الشقة . . وقال مرسى لمرتضى فى صوت خافت يقطر ريبته وشكوكه :

ـ لماذا يحاول مصطفى أن يدفعنا إلى كتابة وتوزيع المنشورات . . إنه ليس منا . . إنه ابن أحد السادة ويملك سيارة . . ولا يهمه أن نقع كلنا فى يد البوليس بالمنشورات . . وطبعا لن يقع جنابه معنا . .

وقال محيى الدين وقد سمع الصوت الخافت :

ـ سواء كان مصطفى منا أو ليس منا فنحن المسئولون عن الموافقة على الفكرة . . والحركة الوطنية تفرق بين الأفكار لا بين الأشخاص . . ونحن فى معركة مع البوليس مهما كانت الفكرة . . ما دامت فكرة لا يقرها البوليس . . ولم نستأذنه فى تنفيذها . .

* * *

ودخل مصطفى بيته متأخرا عن الموعد المحدد لتناول طعام الغداء . . ورغم أن والده حريص على كل النظم التى تفرض مواعيد محددة لكل حياته . . فقد كان فى انتظار ابنه كما كان فى انتظاره أمس . . وواجهه بعنف بمجرد أن وقف أمامه :

ـ هل قامت مظاهرات اليوم أيضا . .

وقال مصطفى فى أدب :

ـ لا . . لم تحدث فى الجامعة أى مظاهرات . . فقد عدلت الحكومة عن رفع سعر رغيف العيش . .

وصاح الأب :

ـ إذن لماذا تأخرت ؟

وقال الابن فى أدب :

ـ لا شىء . . شغلتنى مناقشات كانت تدور بين الطلبة . .

وصاح الأب :

ـ ماذا يريدون بهذه المناقشات . .

وقال الابن وكأنه مستسلم لأبيه :

ـ لا شىء . . مجرد مناقشات عامة . .

وقال الأب كأنه هدأ ويحاول إقناع ابنه :

ـ على كل حال فإن الحكومة إذا كانت قد عدلت عن رفع سعر الرغيف استجابة للمظاهرات الشعبية . . فهى لا تستطيع أن تعدل عن دفع أقساط الديون وفوائدها التى تهددها بالإفلاس . . وأتمنى لو أن الطلبة بدأوا فى مناقشة موضوع هذه الديون حتى يجدوا حلا لها ما داموا يرفضون رفع الأسعار . .

وقال مصطفى وهو يدارى عينيه عن أبيه كأنه يدارى كذبه :

ـ إنى لا أشترك فى مناقشات الطلبة . . ولا أحاول أى موضوع للمناقشة . . إنى أتسلى بالاستماع إليهم . .

وقال الأب رضوان الدسوقى وكأنه يستعطف ابنه :

ـ لقد اتصل بى اليوم وزير الداخلية . . وتأسف لى عما حدث من اعتداء البوليس عليك . . واعتذر بأن رجاله لا يعرفونك . . لا يعرفون من أنت وابن من . .

وقال الابن ولهجته أقرب إلى أن تكون ساخرة :

ـ لقد شملنى الوزير اليوم بفضله . . فقد تركونى أدخل الكلية رغم أنى لم أكن أحمل معى كارنيه الجامعة . .

وقال الأب وكأنه يهدد ابنه :

ـ لقد طلب منى الوزير أن أحذرك من الاشتراك فى أى تجمع للطلبة . . فإن البوليس سيهاجم أى تجمع بمنتهى العنف . .

وقال الابن متظاهرا بالاستسلام حتى يريح أباه :

ـ حاضر . .

وقالت أمه عفاف وهى تبتسم لابنها كأنها تقبله من بعيد :

ـ إنى مطمئنة على ابنى مصطفى . . فهو أعقل العقلاء ولا يمكن أن يعرض نفسه لأى اعتداء آخر . . ويجب أن آخذك اليوم إلى طبيبنا الخاص ليكشف على رأسك . . من أدرانى بما فعله برأسك الطبيب الآخر . .

وقال مصطفى فى استسلام :

ـ حاضر . .

الفصل السادس

فى صباح اليوم التالى ذهب مصطفى إلى الجامعة متلهفا . . ولم يكن قد جد ما يتلهف عليه ولكنه أصبح متلهفا دائما لمجرد الوجود فى الجامعة بين زملائه الجدد عليه . . وكان رنين الألم قد خف عن رأسه كما كان الطبيب الذى صحبته إليه أمه قد رفع الشاش الملفوف حول رأسه واكتفى بأن لصق ضمادا من جلد « البلاستر » فوق الجرح الذى كان يشق جبينه وكان الطبيب الأول قد ضم الجرح بغرزتين . .

وكان الأصدقاء مجتمعين فى البوفيه . .

وقال محيى الدين عبد السلام بمجرد أن رآه كأنه يعيد إذاعة خبر جديد :

ـ لقد أفرج عن معظم الطلبة الذين اعتقلوا فى المظاهرة . . ولكن بقى منهم خمسة عشر طالبا لا يزالون معتقلين . . ومن بينهم خمسة من طلبة كليتنا . .

وقال مصطفى فى صوت خافت متردد :

ـ هل سنقوم بمظاهرة للإفراج عنهم . .

وقال محيى الدين فى لهجة زعيم مسئول :

ـ لنحتفظ بحق التظاهر للمواضيع الوطنية العامة والأخطر . . وإنى أفكر فى الالتجاء إلى المنشورات منذ تحدثنا عنها أمس . . فليكن

أول منشور نشهره يطالب بالإفراج عن الطلبة المعتقلين إذا لم يفرج عنهم اليوم أو غدا . . ولنبدأ بإعداد هذا المنشور اليوم . .

ومرت برهة صمت على جميع المجتمعين كأن كلا منهم يفكر فى هذا المشروع الجديد عليهم . . إلى أن انطلقت نهى صائحة :

— إنى موافقة على منشور بالإفراج عن المعتقلين . . وحتى لو أفرج عن بقية الطلبة الذين قبض عليهم فى المظاهرة فهناك مئات من المعتقلين الآخرين الذين قبض عليهم لجهاد وطنى عبروا عنه فى مناسبات أخرى . . وإنى مستعدة أن أكتب هذا المنشور وأعرضه عليكم . .

وانطلق فتحى إبراهيم قائلا كأنه يتباهى بعبقريته :

— هناك فكرة جديدة للالتجاء إلى المنشورات . . سنكتب منشورا فى جملة واحدة . . وهى . . أفرجوا عن المعتقلين . . ونجمع أيضا توقيعات العمال . . توقيعات الألاف بل والملايين . . وكل موقع يسجل اسمه وصفته . . حتى تتأكد الحكومة من صدق كل التوقيعات . .

وقال مصطفى مبهورا :

— إنها فكرة تحقق قوة أضخم من قوة منشور عادى . .

وقال مرتضى :

— إن عددنا لا يكفى لجمع ملايين أو آلاف التوقيعات . .

وقال فتحى إبراهيم بانطلاقه :

— إننا نستطيع أن نوزع الورقة التى تحمل الجملة الواحدة بعد طباعتها على كل ممثلى التجمعات الطلابية . . سواء التجمعات الاسلامية أو التجمعات الماركسية أو التجمعات الناصرية . . أو . . أو . . ويقوم كل منهم بجمع التوقيعات . . ثم نجمع كل أوراق المنشور ونقدمها يد واحدة . . أو نجمعها فى زكائب نلقى بها أمام مكتب رئيس الحكومة . . إننا بذلك نكون أيضا قد حققنا وحدة الحركة الطلابية . .

وقال محيى الدين كأنه يهم أن يلقى خطابا :

— إنى أحيى فى صديقنا فتحى روحه الوطنية التى تدفعه دائما إلى أفكار جديدة . . كأنه مخترع . . إنه أديسون الحركة الوطنية . . ولكن هذه الفكرة تتطلب مبالغ هائلة . . على الأقل ثمن الورق الذى نطبع عليه الجملة الواحدة ونجمع عليها التوقيعات . . وصديقنا لويس الذى يملك أبوه مطبعة قد يستطيع أن يتحايل على أبيه ويطبع عشرات من أوراق المنشور، ولكنه لن يصل بتحايله إلى طبع الآلاف لنحقق أحلامنا الوطنية . .

وقال مرسى ضاحكا :

— لقد تحايلت على أمى هذا الصباح واستطعت أن آخذ منها جنيها . . أتبرع به . . لا . . لا . . لا أتبرع ولكنى أدفع ما استطعته حتى نصدر المشروع . .

ثم أخرج الجنيه من جيبه ووضعه أمام محيى الدين . .

وقال مرتضى وهو يضحك هو الآخر :

ــ أنا أشطر من مرسى .. لقد أخذت من أبى خمسة جنيهات بحجة شراء كتاب جديد ...

وأخرج الجنيهات الخمسة من جيبه ..

وقالت نهى وهى تطأطىء رأسها كأنها خجلة :

ــ أنا .. ولا مليم .. يدوبك مصاريف البيت ..

وقال محيى الدين كأنه يسخر من نفسه :

ــ أنـا لن أستـطيع أن أساهم بأكثر من عشرة جنيهات حتى لو بعت بدلتى الثانية ..

وقـاطعـه مصطفى فى حدة وهو يخرج من جيبه المائة والخمسين جنيها التى لا يزال محتفظا بها :

ــ إنى أستطيع أن أدفع كل تكاليف المشروع وهذا المبلغ يعتبر المقدم ..

وتبـادل الـزمـلاء النـظرات بين بعضهم البعض .. كأنهم يتهامسون .. إن مصطفى لا يريد أن ينسى أو يتجرد من شخصية ابن المليونير ..

وصاح فيهم مصطفى كأنه غاضب :

ــ إذا كنتم تصرون على أن تقوم الحركة الوطنية على المساواة فى دفـع مصـاريف ما نحتاج إليه .. كما قلتم لى بالأمس .. فاعتبروا ما أدفعـه كأنه سلفة للحركة الوطنية تردونها إلى عندما يتوفر للحركة ماترده إلى ..

وقـال محيى الـدين عبـد السـلام فى صوت متلعثم كأنه يقاوم استسلامه لرأى آخر غير الرأى الذى أعلنه أمس ..

ــ من المفـروض أن كل قرش فى مصر هو ملك للحـركـة الوطنية .. والأغنياء الذين يملكون مزيدا من القروش هم أقرب إلى أن يكون كل منهم كأنه بنك يحتفظ فيه الشعب بأمواله .. ومن حق الشعب أن يسحب من البنك ما تتطلبه أى حركة شعبية .. أى أننا سنعتبرك بنكا لتغطية ما تفرضه حركتنا الوطنية من تكاليف ..

وقال مصطفى فى غضب :

ــ أنا لا يمكن أن أكون بنكا .. وإلا كنت بنكا مفلسا .. إنى شخصيا لا أملك ولا مليم ..

وقال فتحى مبتسما ابتسامة كأنها مسمومة بالغيرة :

ــ إنك تستطيع أن تبيع سيارتك لو عجزت عن أن تأخذ من والدك ما تريد .. أو على الأصح ما تحتاج إليه الحركة الوطنية .. إنها سيارة تسـاوى الآلاف .. وطبعا .. سيشفق والدك عليك من أن تسير على قدميك ويشترى لك سيارة أخرى جديدة .. وعندما تشترى هذه السيارة الأخرى الجديدة استشرنى فإنى خبير فى السيارات ..

ونظر مصطفى إلى فتحى ساخطا وهو يزفر أنفاسه كأنه يحس بثقل فوق صدره وقال :

ــ سبق أن رجوتك ألا تأتى على ذكر والدى فى أى كلام بيننا ..

وقال فتحى فى لهجة حانية ودوده كأنه يؤكد صدقه :

ــ آسف .. إنى لا أتعمد أى كلام .. ولكننا أصبحنا إخوة حتى أنى أتصور والدك كأنه والدى .. والدنا كلنا ..

وقال محيى الدين عبد السلام كأنه يتعمد أن يأخذهم بعيدا عن هذا الكلام :

ـ لقد بدأنا فعلا فى تلقى التبرعات وأصبحنا فى حاجة إلى أمين صندوق . . من يكون منا أمينا للصندوق . . أنا شخصيا لا يمكن أن أكون . .

وقال فتحى إبراهيم :

ـ طبعا مصطفى هو أمين الصندوق . . لقد دفع منذ الآن أكبر مبلغ . .

وهلل الباقون موافقين . . وقال مصطفى بعد أن صمت فترة :

ـ لا مانع . . مستعد أن أكون أمينالصندوق الحركة . .

وقال محيى الدين وهو يجمع الجنيهات التى أعطيت له ويناولها لمصطفى قائلا وهو يضحك :

ـ هذا أول مبلغ يدخل الخزينة . .

وقال فتحى مبتسما :

ـ سأضيف غدا خمسة عشر جنيها . . وربنا يوفقنى . . ربنا يستر . .

وقال مصطفى وهو يأخذ الجنيهات من محيى الدين :

ـ يجب أن نسجل التفاصيل فى دفتر نحتفظ به سرا بيننا . .

ثم نزع ورقة بيضاء من كتاب يحمله وبدأ يكتب بقلمه . . جنيه واحد من مرسى . . عشرة جنيهات من مرتضى . . مائة وخمسين

جنيها من مصطفى الدسوقى . . وقفزت نهى واقفة قائلة وابتسامة الفرحة بما انتهوا إليه تلمع بين شفتيها :

ـ عن إذنكم . . سأذهب إلى المحاضرة . .

ونظر مصطفى إليها كأنها فاجأته بشىء كان قد غاب عن باله . . إنه فى الجامعة . . والجامعة تدور فيها محاضرات دراسية . . وأنهى الورقة التى يكتبها ثم نزعها من الكتاب وسلمها إلى محيى الدين قائلا :

ـ إنى لم أوقعها . . ولكنها بخط يدى . . وعن إذنكم . . إن لدى أنا الآخر محاضرة . .

وقال محيى الدين وهو يضع الورقة فى جيبه دون أن ينظر إليها . . وهو فرح . . كأنها فرحة الانتصار :

ـ سأجرى أنا وراء تنفيذ ما اتفقنا عليه . .

وانفض اجتماع الشلة . .

* * *

إن مصطفى يحس كأنه يتحدى نهى . . إذا كانت جادة فهو جاد أكثر منها . . وإذا كانت قد التحقت بالجامعة لحاجتها إلى شهادة عالية فهو فى حاجة أكبر . . وإذا كانت تواظب على حضور الدروس والمحاضرات حتى تنجح فى الامتحان . . فهو يواظب هو الآخر وسينجح ويحصل على البكالوريوس ويصبح مهندسا محترما . . كأنه كان يؤكد لها أن ليس هناك فرق بين الغنى والغلبان . . كلاهما متسابقان فى الحياة نحو هدف واحد . . ولكنه يعترف بأن كل هذه الأحاسيس جديدة عليه . . لقد كان يعيش من قبل وهو لا يحس

بالتحدى إلا بين شباب طبقة أولاد الأغنياء . . ويتحداهم فى التفوق عليهم بالمغامرات اللاهية العابثة التى يملأون بها حياة كلها فراغ . . إلى أن انضم إلى شلة أولاد الغلابة . . وانتقل إلى حياة أخرى . . حياة ليس فيها أوقات فراغ . . ولا يتحدون فيها بعضهم بعضا ولكن كلهم يتحدون الفقر . . وكانت نهى هى أقوى من ارتبط بهم . . ولا يدرى ما ربطه بها . . لا يدرى ماذا يريد منها . . إنه مجرد إحساس بها . .

وانتهى مصطفى من حضور المحاضرات وخرج إلى الفناء ملهوفا إلى لقاء نهى . . إلى أن التقى بها تسعى إليه كما يسعى إليها . . وقالت ضاحكة وخطواتها مع خطواته :

ـ أهلا سيادة أمين صندوق الحركة الوطنية . .

وقال دون أن يتجاوب مع ضحكاتها :

ـ إنى إلى الآن لا أدرى ما هى مسئوليتى . . وما هى مهمة أمين الصندوق ؟

وقالت خلال ابتسامتها الواسعة :

ـ مهمته أن يدفع . .

وقال وهويزفر أنفاس الضيق :

ـ كنت مستعدا أن أدفع دون أن أحمل هذا اللقب وهذه المسئولية . .

وقالت وقد عادت ضاحكة ضحكتها التى تتمايل معها :

ـ تريد أن نطمئن إلى تحميلك مسئولية الدفع . . أصبحت بيننا صاحب منصب رسمى . .

وكانا قد خرجا بمسيرتهما من باب الكلية . . ولم يتجه بها إلى موقف الأتوبيس كما كانت العادة . . بل سار وبلا تعمد نحو سيارته . . ثم وقف بجانبها وهو ينظر إليها كأن من المفروض أن تركب معه . . وقد سبق أن ركبت سيارته فلم يعد هناك ما يدفعه إلى تعمد دعوتها إلى الركوب . .

وقالت نهى مبتسمة ابتسامتها الواسعة وإن كانت لهجتها لا تخلو من تردد :

ـ لقد سبق أن ركبت معك السيارة وأنت مضروب . . وأرى أن أركب معك اليوم أيضا حتى لا تضطر أن تضرب نفسك مرة أخرى لتقنعنى بالركوب . .

وهو ينظر إليها وهى بجانبه فى السيارة ولا يدرى لماذا هو سعيد بها إلى هذا الحد . . لا يدرى ماذا يريد منها . . إنها ليست جميلة . . إنها تبدو أمامه ككوز الذرة المشوى الذى لا يجذبك جماله ولكنه يثير شهيتك للأكل . . إنها تثير شهيته للراحة والشبع وهى بجانبه . .

ومرت بهما برهة صمت كأن كلا منهما يحاول أن يعود نفسه على وضع جديد أصبح يجمعهما . . وضعهما منفردين بعيدا عن عيون الطلبة وهى بجانبه فى سيارته الخاصة . . إلى أن قال مصطفى فى لهجة جادة دون أن يبتسم وكأنه بدأ التحقيق :

ـ لقد قلت لى أنك متزوجة . . منذ متى ؟

وقالت نهى ضاحكة :

ـ منذ ثلاث سنوات وأربعة أشهر وخمسة وعشرين يوما . .

وقال مصطفى جادا كأنه يرفض أن يشاركها ضحكتها :

ـ وقد أصبحت أما . .

وقالت نهى بسرعة كأنها تدافع عن نفسها :

ـ لا . . لست أما . . لا صبيان ولا بنات . . الوقت لم يحن بعد . . .

وقال مصطفى فى دهشة :

ـ أى وقت تنتظرينه ؟

وقالت نهى وكأن ابتسامتها ضاعت وسط أحلامها :

ـ الوقت الذى يصل بالعائلة إلى تحقيق دخل معقول ثابت يكفى لأن أوفر لأبنائى تنشئة مريحة . . إن زوجى عزوز من صغار الموظفين . . أى من الطبقة التى يسمونها طبقة محدودى الدخل . . وهو لا يحمل شهادة جامعية . . حتى يطالب برفع مرتبه . . ولكنه يحاول . . ويكسب من جهد يبذله خارج الحكومة ولكنه لا يزال يكسب القليل . . وقد فكرت أنا أن أعمل وأكسب . . حتى أوفر دخلا للعائلة يضمن لى تربية أولادى إذا أنجبتهم . . وفكرت يوما فى أن أعمل بائعة فى أحد البوتيكات النسائية . . كما فكرت فى أن أتفرغ لأعمال التريكو . . فأنا موهوبة بفن التريكو . . وأستطيع أن أكسب بإنتاج يدى . . ولكنى قررت أن أصبر قليلا إلى أن أنال شهادة الهندسة . . شهادة صعبة ولكنها توفر دخلا أكبر . . .

وقال مصطفى كأنه يقاوم مرارته :

ـ إنك لا تعتمدين على الله . . لذلك ترفضين وتقاومين أن تكونى أما . .

وقالت نهى بسرعة :

ـ إن كل اعتمادى على الله . . ولعلك لا تعلم أنى متدينة وحريصة على أداء كل الفروض . . بل إنى منذ كنت صغيرة وأنا أتمنى على الله أن يوفر لى السبيل الذى أستطيعه لأؤدى فريضة الحج . . ولكن الاعتماد على الله هو الاعتماد على العقل الذى وضعه الله فى رأسك . . والعقل يقول لى ألا أصبح أما إلا بعد أن أوفر ما يكفى لتربية أولادى للحياة التى أريدها لهم . . وزوجى عزوز ليس متحمسا فى إنجاب أولاد . . ربما كان الارتباط بينى وبينه لا يفتح شهيتنا للإنجاب . .

وقال مصطفى كأنه يريد أن يثير نهى :

ـ إن الحب بين الزوج والزوجة يفرض عليهما الإنجاب . . كأن كلا منهما يعيد خلق نفسه من الآخر . .

وقالت نهى ضاحكة :

ـ إنى لم أتزوج عن قصة حب كالتى تقرؤها فى الروايات . . وقد قلت لك أن أمى زوجتنى وأنا صغيرة خوفا على من البوار . . وأنا استسلمت للزواج لأنه المصير المكتوب . . وربما كان عزوز قد تزوجنى لمجرد أن أهله فرضوا عليه استكمال حياته الطبيعية دون أن يعجز عن استكمالها . . ليس بينى وبين زوجى قصة حب . . ولكن بيننا تفاهم وقوة احتمال أحدنا للآخر . . وكل منا منفرد بفكره

وآمـالـه وطريقه . . بدليل أننى دخلت الجامعة بينما هو لا يفكر فى الجامعة . . بل يستهين بها ويحتقرها بينه وبين نفسه . .

وقال مصطفى وهو يفتعل ضحكة يدارى بها ما يقصده :

ــ لو كنا قد تزوجنا . . أنت وأنا . . منذ ثلاث سنوات . . لكان لدينا الآن ثلاثة أبناء . . وكنت أتمنى أن يكونوا ستة . . فإنى أحب التوائم . .

وقاطعته نهى ضاحكة :

ــ لو كنت قد تزوجت من أمثالك لكانت فضيحة . . ولاتهمت بين النـاس بأنى اصـطدتـك لأعيش بمـلايين أبيك . . ولكنت قد رفضت أن أنجب منك أنت الآخر لأنى لا أريد أن ينشأ أولادى وهم يعيشـون بإحسـاس أن لا فضل عليهم إلا ملايينك أو ملايين أبيك . . وأن أمهم ليست سوى الوعاء الذى طبخوا فيه إلى أن خرجوا إلى الحياة كوجبة شهية من وجبات الأغنياء . . لا . . أريد لأبنائى أن يعيشـوا وهم فخـورون متباهـون بأمهم كما هم فخـورون متباهون بأبيهم . . ثم ما هى حياتـك ومـا هى حياتى حتى تجمعنا فى حياة واحـدة . . كيف تعيش وكيف أعيش . . إن الحياة ليست مجرد عواطف . . إنها طريق . . وكـل منـا يسـير طريقـا آخر . . وحتى لو افترضنا الحب فإنى لا أستسلم لعواطفى ولكنى أستسلم لعقلى حتى أحتفظ بشخصيتى . .

وقبـل أن يرد عليها مصطفى كان قد وصل بالسيارة إلى ميدان الجيزة وصاحت نهى :

ــ قف . . سأتركك هنا . . فلو دخلت بسيارتك فى الحوارى فكأننا نعلن الفضيحة . .

ووقف بالسيارة ونزلت نهى قائلة من خلال ابتسامة واسعة :

ــ مع السلامة يا سيادة أمين الصندوق . . أراك غدا . .

ومصطفى يتتبعها بعينيه وهى تبتعد عنه وكأنه مذهول بما سمعه منها . . ثم بدأ يقود السيارة وهو واقع تحت إحساس بالسخط . . السخط على نفسه وعلى حاله . . إن أباه يلاحقه ولا يستطيع أن يتخلص من الانتساب إليه حتى وهو يتبادل الكلام مع فتاة يرتاح إليها ويريد أن ينفصل بها بشخصيته الخاصة . . شخصية مجردة عن أبيه . . لعله لو أراد الزواج يوما فلن يتزوج إلا باسم أبيه لا باسمه . . وبقيمة أبيه لا بقيمته . . وربما كان أبوه هو وحده الذى يحق له أن يختار له العروسة . . كيف يستطيع أن يتخلص من شخصية أبيه ويستقل بشخصيته . . ربما من المفروض عليه أن ينتظر حتى يموت أبوه ويرحمه من الاستيلاء عليه . . ولكن لماذا لا ينفصل عن أبيه من الآن . . يخرج إلى طريق يسير فيه وحده . . ويعمل معتمدا على نفسه ليغطى نفقات معيشته . . وكثيرون من أبناء المليونيرات فى أمريكا يستقلون عن آبائهم ويبدأون القيام بأعمال خاصة حتى لو بدأ الواحد كبائع صحف . . بل إن كثيرين من شباب أمريكا يتزوجون وهم لا يزالون طلبة وهم يعملون لكسب عيشهم . . إنه يستطيع أن ينفصل عن أبيه ويستقل عن حياته ويبدأ فى كسب رزقه حتى لو بدأ كسائق تاكسى كما يحاول زميله فتحى إبراهيم . .

وبدأت أحاسيسه بالسخط تخور . . ووجد نفسه يستسلم فى ضعف . . إنه لا يستطيع أن يتخلص من شخصية أبيه . . إنه ليس له قيمة إلا أنه ابن المليونير رضوان الدسوقى . . سواء احتاج لهذه القيمة وهو يقضى سهرة فى صالة من صالات الليل حتى يستقبل

بالرحاب الزائد وتتجمع حوله الجرسونات والنساء المحترفات . . أو وهو يشترك فى اجتماعات الحركة الوطنية بين طلبة الجامعة . . إنهم هم أيضا يحصرون تقديرهم له فى أنه ابن مليونير . . وربما وضعوه بينهم أمينا للصندوق لا تقديرا لقدراته وكفاءته ووطنيته بل تقديرا لملايين أبيه . .

والاستسلام يغلبه . . ويكاد ينهر نفسه لهذا السخط الذى يطرأ عليه . . لماذا لا يعتز ويفخر ويتباهى بأنه ابن المليونير رضوان الدسوقى . .

* * *

ونشاط طلبة البوفيه من الأصدقاء يتسع ويحقق نتائج إيجابية . . لقد استطاع محيى الدين عبد السلام أن يقنع لويس بطبع المنشور فى مطابع أبيه . . ولكنه فى حاجة إلى ثمن الورق الذى سيطبع عليه المنشور . . وقد استطاعوا أن يجمعوا تبرعات بلغت سبعين جنيها . . وكانت نهى أنشط الجميع فى جمع التبرعات . . لقد جمعت وحدها ثلاثين جنيها . . ومصطفى حريص على أن يسجل كل قرش يضعونه بين يديه . . ويضع أوراق الحساب بين يدى محيى الدين عبد السلام . . وهو فى نفس الوقت يغطى باقى ما يحتاج إليه شراء الورق . . وقد أخذ من أمه مائتى جنيه . . وجمع من البيت عدة أجهزة راديو وتليفزيون وفيديو كان يعطيها لفتحى إبراهيم ليبيعها ويضم ثمنها إلى رصيد الحركة . .

ولم يفرج عن الطلبة . .

وصدر المنشور الذى يسجل جملة واحدة . . « افرجوا عن المعتقلين » . . فوق ورقة بيضاء طويلة تجمع عليها توقيعات كل

الطلبة وكل العمال وكل من يقبل التوقيع مع ذكر صفته . . ووزعت هذه الأوراق على أفراد الشلة . . كما وزعت على قيادت كل أحزاب وتجمعات الطلبة والعمال حتى تكون حركة وطنية واحدة تقوم بجمع التوقيعات . .

ونهى حملت ألف فرخ من أوراق المنشور لتوزيعها بين صديقاتها وزميلاتها الطالبات حتى تشركهن فى جمع التوقيعات . . ومصطفى لم يحمل أكثر من عشرة أفرخ بدأ يجمع عليها بنفسه التوقيعات . . وقد بدأ يجمع توقيعات الطلبة الذين يعرفهم من يوم أن التحق بالجامعة ومعظمهم يشتركون فى أنهم من أولاد الأغنياء . . ثم حمل الأوراق إلى النادى يحاول أن يجمع التوقيعات من أفراده . . ولكن كلهم يرفضون التوقيع ومنهم أفراد يصرخون فى وجهه :

ـ ما دخلك فى توزيع هذه المنشورات . . أتدرى ما الذى يريدونه . . إنهم يريدون خراب بيوتنا والعودة بنا إلى أيام عبد الناصر . . أيام الفقر . . يستولون على مالنا ويصبحون هم وحدهم الأغنياء . .

ورغم ذلك استطاع أن يجمع عددا قليلا من التوقيعات . . وإن كان بعضها كأنها توقيعات هزلية لا تتعدى الشخبطة أو كاذبة لا تحمل الاسم الصحيح ولا الصفة الحقيقية . . حتى أن أحدهم بعد أن سجل توقيعا مزيفا كتب صفته بأنه رئيس وزراء المستقبل . .

وقد غامر مصطفى كأنه يحاول أن يفرض نفسه على الحركة الوطنية . . وبدأ يطوف بالطلبة العاديين الذين لا يعرفهم . . الطلبة الغلابة . . ولكن معظمهم يعرفونه . . إنه ابن المليونير رضوان الدسوقى . . وكان كل منهم يتلقى عرضه فى دهشة . . ما الذى

أدخله فى الحركة الوطنية . . وبعضهم يوقع كمجاملة له . . وبعضهم يعتذر بأنه سبق أن وقع لدى طالب آخر . . وبعضهم يتلقاه فى حقد ويحاول أن يجادله فيهرب مصطفى من أمامه .

وكان أفراد شلة الأصدقاء يجتمعون فى المساء فى شقة فتحى ابراهيم .. ويراجعون التوقيعات التى جمعوها . . لقد جمعوا فى يوم واحد مئات التوقيعات . . وغدا سيصلون إلى الآلاف . . وقد جمعوا الآلاف فعلا فى الغد . . حتى أن أفراد الشلة وهم متجمعون فى المساء بدأوا بعد أن راجعوا ما تسلموه من منشورات موقعه يناقشون إصدار منشور آخر . . إن نجاحهم فى توزيع المنشور الأول يدفع إلى إصدار منشور آخر فوراً . .

وقال محيى الدين عبد السلام :

ـ أى موضوع نختاره للمنشور الجديد ؟

وقال مرسى فى حدة :

ـ إن كل حالة البلد مرتبطة بعلاقاتنا بأمريكا . . فليكن منشورا يدعو إلى التحرر من أمريكا . .

وقال مرتضى :

ـ إن ارتباطنا بأمريكا يعنى ارتباطنا باسرائيل . . فليكن المنشور ضد كامب دافيد وضد ما يسمى العلاقات الطبيعية مع إسرائيل . . إننا لا نقبل أن نكون على علاقات طبيعية مع إسرائيل وهى تعتدى على كل الأرض العربية . . فأرضنا عربية . .

وقال فتحى إبراهيم فى هدوء كأنه يعرض عبقريته :

ـ لنبدأ من البداية . . أى من حالتنا الداخلية . . وقد قرأت لأحد الكتاب الذين نثق فيهم مقالا أخيرا يقول فيه . . إن مصر شعب غنى ودولة فقيرة . . ولنفرض أن هذا صحيح . . ولكن لماذا يكون الشعب غنيا والدولة فقيرة . . لأن الغنى لا تحكمه قوانين . . ولا تسيطر عليه دولة واعية تفرض الوسائل النظيفة الشريفة فى الحصول عليه . . ثم توزعه بحيث يضمن سلامة كل الشعب . . إننا لا نعيش أى نظم تربط الدولة بالشعب رباطاً صادقاً نظيفاً تستطيع به أن تكون دولة غنية بشعب غنى . . فلنصدر منشوراً يطالب بارتباط الدولة بالشعب . . والشعب بالدولة . . ولنذهب إلى هذا الكاتب ونناقشه حتى يوحى إلينا بما نكتبه فى المنشور . .

والمناقشات لا تنتهى . . والليل يزحف . . ومصطفى يستمع ويحاول أن يقيس كل ما يسمعه بما يفهمه عن حالة أبيه . . وعما سبق وسمعه من أبيه . .

★★★

وكانت الساعة قد تعدت الثانية صباحاً عندما دق التليفون فى بيت رضوان الدسوقى . . وقام المليونير من النوم مفزوعا ورفع السماعة وسمع صوتاً متعجلا يقول :

ـ قبض البوليس على مصطفى الدسوقى . . واعتقل فى سجن القلعة . .

واختفى الصوت من التليفون . . وأعاد الأب سماعة التليفون وهو يتلفت إلى زوجته ليطمئن إلى أنها لم تسمع شيئا . . حتى لا تفزع بما جرى لابنها . . وكانت زوجته نائمة . . وهو لم ينم فى انتظار الصباح . .

الفصل السابع

لم يحاول الأب أن ينام بعد أن سمع خبر اعتقال ابنه . . وخواطره تعصف داخل فكره . . من الذى أبلغه الخبر بهذه الكلمات السريعة التى حملها إليه التليفون . . لابد أنه أحد الطلبة . . لو كان الذى اتصل به هو أحد المسئولين لأفاض فى الحديث عن أسباب الاعتقال وعبر عن أسفه لاضطرارهم لاعتقال ابنه معتذرا له . . ولكن . . لعل المسئولين لم يعلموا بعد أن ابنه كان من بين من اعتقلوهم . . ولينتظر حتى الصباح حتى يتلقى الخبر رسميا . . ولكن . . قد تمر أيام قبل أن يكتشفوا أنهم اعتقلوا ابنه . . فماذا يفعل . . ولكن . . لماذا يفعل أى شىء . . لماذا لا يترك ابنه يتحمل مسئولية نفسه كما كان هو يتحمل مسئولية نفسه منذ كان صبيا . . لقد تحمل مسئولية انتشال نفسه من الفقر حتى وصل إلى منتهى الغنى . . وربما اختار ابنه أن ينتشل نفسه من الغنى حتى ينهار إلى منتهى الفقر . . إن تعريض نفسه للحركات السياسية الطلابية الغوغائية هو أقصر طريق ينتهى به إلى الفشل . . والإفلاس . . والفقر . . حتى لو تركه يرث عنه ملايينه فسيضيعها على هذه الحركات . . مقنعا نفسه بأن يفلس فى سبيل الوطن . . ورغم ذلك فلماذا لا يتركه حرا . . لقد وصل ابنه إلى السن الذى يحتاج فيه إلى الحرية حتى يستكمل شخصيته . . لماذا لا يتركه معتقلا داخل السجن حتى يجتاز تجربة من تجارب الحياة تجعله يختار بعدها طريقه . .

وزفر الأب أنفاسه التى تثقل على قلبه حتى تكاد تسكته . . إنه لا يستطيع أن يترك ابنه سجينا . . لا يستطيع أن يترك ابنه داخل السجن . . وهو واثق أنه يستطيع أن يفرج عنه باتصاله بالمسئولين . . وهو قد تعود أن يتعالى على هؤلاء المسئولين ولا يطلب منهم شيئا خاصا ويتركهم هم الذين يطلبون . . ولكن ابنه بدأ يذله أمامهم . . إنه هو الذى سيطلب هذه المرة إسباغ فضلهم عليه . . وحتى لو عجز عن الإفراج عنه فهو مضطر أن يرعاه وهو داخل السجن . . على الأقل ليطمئن على معاملته وكيف يعيش فى الزنزانة . . وهل ينام على الأرض المسفلتة أم أنعموا عليه بسرير ينام عليه . . وماذا يأكل . . يجب أن يكون للعائلة حق تزويده بما يأكله . .

واستيقظت زوجته عفاف وهى لا تعرف شيئا . . وهبت فورا كعادتها وهى تردد كلمة صباح الخير دون أن تنظر فى وجهه وخرجت من الغرفة لتطمئن على ابنها مصطفى فى غرفته . .

وعادت إليه مبهورة كأنها تلهث وقالت كأنها تئن :

– مصطفى ليس فى البيت . .

وقال متنهدا فى أسى :

– اطمئنى . . إنى أعرف أين هو . .

وصاحت كأنها تصرخ :

– أين ؟

وقال الأب وهو يكظم أسنانه كأنه يخشى أن تقع وتسقط ويبتلعها :

– معتقل . . فى السجن . .

وصرخت الأم :

– فى السجن . . لقد سبق أن ضربوه . . وهم اليوم يلقون به فى السجن . . إنهم يقصدونه . . بل إنهم يقصدونك أنت . . يستخفون بك . . ولا يحسبون لك أى حساب . . كيف يقبضون على ابن رضوان الدسوقى . . إلا إذا كان رضوان الدسوقى لم يعد يساوى شيئا . .

وانهارت فوق السرير تبكى ودموعها تسيح بين عينيها . .

وقال الأب دون أن يحاول تجفيف دموعها :

– إن من يستخف بى ولا يحسب لى أى حساب هو ابنى مصطفى نفسه . . وقد سبق أن ناقشته وحاولت إقناعه بالابتعاد عن الحركات التى يثيرها الطلبة وحذرته بما أبلغنى به وزير الداخلية من أن الوزارة ستزداد عنفا . . ولكنه لا شك قد استهان بالوزير واستهان بى . . استهان بأبيه . . وإستمر مع الغوغائية المنطلقة فى الجامعة . .

وصاحت الأم ساخطة :

– ليس معروفا عن مصطفى أن له دخلا فى السياسة . . كل ما هو معروف عنه أنه ابنك . .

وقال الأب كأنه يحادث نفسه :

– إن البوليس يتلقى أوامر فى مواجهة الأحداث دون تفريق بين الأبناء . .

وقالت الأم وهى تمسح دموعها بكم قميص النوم :

– إنى مضطرة أن أعود إلى الاتصال بكوثر زوجة وزير

الـداخلية . . لقد أصبحـت أكرهها . . أحس كأنها تشمت فى وأنا مذلولة لها . . ولكن . . من أجل مصطفى يجب أن أحادثها . .

وصاح رضوان الدسوقى فى عنف :

ــ لا . . لا تتصـلى بها ولا بأى أحـد . . فاهمه . . لا تتصلى بها . . وسأتصرف أنا . .

وقـام من جانبها ودخل الحمام ثم ارتدى ملابسه وطلب فنجان قهـوة وضعـه أمـامـه وهـو يرفـع سماعة التليفون . . وحادث رئيس الوزراء . . إنه يريد أن يلقاه حالا . . الآن . . قبل أن يذهب إلى مكتبه فى الوزارة . . ورئيس الوزراء لا يستطيع أن يرفض له أى طلب لقاء وفى أى موعد . . إنه ليس مجرد صديق . . إن بينهما معاملات واسعة .

ووضع رضوان سماعة التليفون . . وشرب فنجان القهوة . . ثم قام خارجا دون أن يحيى زوجته . . ثم عاد قبل أن يخرج من الباب والتفت إليها قائلا :

ــ قلت لك ألا تتصلى بأحد . . اعتبرى الخبر كأنه سر عائلى . .

وركب سيارته إلى بيت رئيس الوزراء . . وهو يجمع أفكاره فى كل كلمة يعدها ليقولها له . . وصورة ابنه وهو داخل السجن لا تفارق خياله . . وتعكر أفكاره . .

واستقبله رئيس الوزراء فى ترحاب كبير من خلال ابتسامة واسعة وبدأه قائلا بعد تحية صباح الخير :

ــ لقد وصلنى الخبر الآن فقط . . وأنا سألت الداخلية بعد أن حدثتنى فى التليفون . . أى لم يكن أحد قد أبلغنى بالخبر . .

وقال رضوان الدسوقى فى مرارة :

ــ أى أنهم اعتقلوه وهم يعرفونه ويعرفون أنه ابنى . .

وقال رئيس الوزراء من خلال ابتسامته الواسعة :

ــ لا تدهش . . فإن كثيرا من أبناء أقرب أصدقائنا يشتركون فى أعمال الفوضى التى يقوم بها الطلبة . . ويتعرضون لما يتعرض له الطلبة الباقون مما يتخذه البوليس حيالهم . . كلهم أبناء متعبون . . وأقول لك بصراحة أن ابنى أنا نفسى يتعبنى . . ويثير أعصابى . . إنه يعتبر نفسه مسلما وأنا كافر . . وقد انضم إلى إحدى الجماعات الاسلامية التى تدعى الثورة . . وأطلق ذقنه . . وأصبح يبالغ فى أداء الفروض الدينية . . حتى أنه أصبح وهو جالس معنا على المائدة يتعمد أن يأكل بأصابعه . . لأن الإسلام لم ينص على استعمال الشوكة والسكين فى تناول الطعام . . وهو طبعا معارض ورافض لكل ما تقرره وتتخذه الحكومة . . حكومتى . . حكومة أبيه . . وهو لا يناقشنى . . ربما احتراما لأبيه . . وربما يأسا من أبيه . . ولكنى أحس بمعارضته من خلال نظراته التى يواجهنى بها . . كأنه ثائر على أو كأنه يحتقرنى . إن هذا الجيل لا يمكن أن يقدر ما نتحمله وما نبذله لصيانة البلد وحماية كيانها . .

وقال رضوان مقاطعا :

ــ ولكن . . هل تتحمل أن يعتدى البوليس على ابنك بالضرب أو يقبضوا عليه ويلقوا به فى السجن . .

وقال رئيس الوزراء فى كمد :

ـ الذى يحميه من البوليس أنهم وضعوا وراءه مخبرا سريا حتى يحميه من الاعتداء عليه . . وأنا وابنى وكل أفراد العائلة نعيش كما تعلم ونحن مهددون بالاعتداء على أى فرد منا . . ورغم ذلك فإنى أفكر أحيانا فى أن أطلب من البوليس التغاضى عن حمايته والقبض عليه ووضعه فى السجن . . لعله يفيق من نزوته ويبتعد عن هذه الجماعات التى تضلله . . .

وقال رضوان فى سخط :

ـ إن السجن لا يفيق الشبان . . بالعكس . . إن من يدخل منهم السجن يخرج وهو أبعد تطرفا ويتمادى بالمجازفة بنفسه داخل الحركات التى يعتبرها حركات وطنية . . كأنه يريد أن يعود إلى السجن من جديد . . إن السجن بالنسبة للطلبة ليس عقوبة ولا يحس به كتهديد لمستقبله . . ولكن السجن بالنسبة لهم بطولة . . وكأنه منح وساما يتباهى به بين الطلبة . . لقد عرفت ذلك منذ كنت أنا نفسى لا أزال طالبا . .

وقال رئيس الوزراء كأنه يهتف بشعار حكومى :

ـ ليكونوا أبطالا بين بعضهم البعض . . ولكننا لا يمكن أن نسمح لهم بأن يكونوا أبطالا علينا . .

وقال الأب فى رجاء أقرب إلى التوسل :

ـ إنى لا أحس بأن ابنى وحده هو المسجون . . فأنا نفسى أحس بأنى وضعت فى السجن . . وحتى لو تحملت هذا السجن فكيف أتحمل حالة أمه التى لم تكف عن البكاء والصراخ منذ قبض

على ابنها . . وهى تعتبرنى المسئول عنه وتكاد تخنقنى بدموعها . . أرجوك . . أفرجوا عن مصطفى . . حتى لو حملتمونى مسئولية تصرفاته . .

ولانت ابتسامة رئيس الوزراء كأنها أصبحت ابتسامة إشفاق وقال :

ـ انتظر . . دقيقة واحدة . .

ثم رفع سماعة تليفون موضوعه جانبيا كأنها مخبأة وسمعه رضوان يقول :

ـ صباح الخير مرة أخرى يا أفندم . .

واعتدل رضوان فى جلسته فورا . . ويرق وجهه بملامح احترام شديد . . ورئيس الوزراء يردد هامسا فى التليفون . . حاضر يا أفندم . . مضبوط يا أفندم . . صح يا أفندم . . ممكن يا أفندم . . ثم أعاد وضع سماعة التليفون والتفت إلى رضوان الدسوقى قائلا :

ـ اسمع يا سيد رضوان . . إن ابنك لم يظلم بالقبض عليه . . لقد كان يشترك فعلا فى إثارة الفوضى وتوزيع المنشورات . . ورغم ذلك فسأصدر أوامرى بالإفراج عنه فورا . . ثقة فيك أنت ومجاملة لك . . وبالمناسبة . . لقد ذكرتنى بعملية استيراد اللحوم التى سبق أن عرضتها علينا . . لم يتم منها شىء حتى اليوم . . ويجب أن تتم هذا الأسبوع . . (واستطرد وهو يضحك ضحكة مفتعلة) . . حتى لا نفقد ثقتنا فيك وقد نبدأ التفكير فى القبض عليك أنت . .

وقال رضوان الدسوقى من خلال ابتسامة مفتعلة :

ـ شكرا يا ريس . . واعتبر أن صفقة اللحوم قد تمت . .

وخرج من بيت رئيس الوزراء بعد أن كرر شكره . . وذهب إلى مكتبه ودخله وهو يبحلق فى عينى كل موظف لديه كأنه يريد أن يضبط من وصله منهم خبر اعتقال ابنه . .

★ ★ ★

وكانت الساعة قد بلغت الرابعة بعد الظهر . . والأب لم يجلس لتناول غدائه ولا الأم . . إنهما مصران على أن يتناول ابنهما الغداء معهما كما تعودا . . وخوف يجتاحهما من ألا يحقق رئيس الوزراء وعده بالإفراج عنه اليوم . .

وظهر أمامهما مصطفى بوجه متجهم يكسوه السخط على عكس ماكانا ينتظرانه من رؤية وجهه فرحا بالإفراج عنه . . واندفعت الأم تحتضن ابنها وتقبله وهى تصيح . . الحمد لله على السلامة . . ألف سلامه . . بينما ظل أبوه جالسا فى مكانه متجهما بمظهر الزعيم المسئول عن العائلة . . ويخفى فرحة تزغرد فى صدره بعودة ابنه إليه . .

ولم يتقدم مصطفى لتقبيل يد والده على الأقل ليشكره على مسعاه فى الإفراج عنه بل ظل واقفا أمامه متجهما بسخطه كأنه يقاوم ما تعود عليه من احترام أبيه ويريد أن ينفث سخطه فى وجهه . .

وبدأ الأب قائلا :

ـ ما أعجب ما وصلت إليه حتى يقبض عليك وتوضع فى السجن . .

وقال مصطفى كأنه لم يعد يستطيع أن يقاوم نفسه :

ـ لقد فضحت . .

وقال الأب مقاطعا :

ـ فضحت لأنك دخلت السجن . .

وصاح مصطفى :

ـ لا . . فضحت لأنـه أفـرج عنى وحدى دون باقى زملائى الذين قبض عليهم . . لماذا يفرج عنى وحدى . . إنى لست بريئا حتى يكون الظلم قد دفع إلى القبض علينا . . أنا وزملائى . . لقد كنت مشتركا معهم فى كل ما قامت به الحركة الوطنية . . إنى متأكد وكل زملائى متأكدون بأنه لم يفرج عنى إلا لأنى ابنك . . وإذا كنت قد سعيت للإفـراج عنى فلماذا لم يكن الإفـراج عنـا كلنا . . حتى لا أتعرض لهذه الفضيحة . .

وقال الأب وهو مذعور من تهجم ابنه عليه لأول مرة :

ـ إنى مسئول عنك . . ولست مسئولا عن الباقين . .

وقال مصطفى مستمرا فى ثورته :

ـ إنك مسئول عن العدالة . . والعدالة التى تفرض الإفراج عنى تفرض أيضا الإفراج عن باقى الزملاء . . وإلا كانت العدالة لا تفرج عنى ولا عنهم . .

وقال الأب كأنه يحاول أن يهرب من ثورة ابنه :

ـ إنى أعرف أساليب الحكومة . . وما دامت قد أفرجت عنك حتى لمجرد مجاملتى فسيضطرون إلى الإفراج عن باقى زملائك حتى لا يتهموا بهذه المجاملة . .

وقال مصطفى وهو يبتعد عن أمه وأبيه :

ـ من يدرى . . وقد كان الواجب أن نبقى كلنا فى السجن أو نخرج كلنا منه . . حتى لا أتعرض لهذه الفضيحة . .

وصاح الأب كأنه لم يعد يحتمل ثورة ابنه :

ـ أى فضيحة تقصد . ؟

وقال الابن وهو يبتعد :

ـ فضيحة أنى لا أساوى إلا أنى ابن رضوان الدسوقى . .

ولاحقته أمه كأنها لا تأبه بما يقال :

ـ ألا تتناول معنا الغداء . .

وقال وهو يدخل غرفته وقبل أن يقفل الباب وراءه :

ـ لقد أكلت مع زملائى داخل السجن . .

وأغلق الباب بعنف . . وسمعت أمه صوت المفتاح وهو يدور فى القفل . . كأنه قرر أن يسجن نفسه فى غرفته حتى يفرج عن زملائه من السجن الكبير . .

★★★

وألقى مصطفى نفسه على فراشه كأنه وقع صريع الهزيمة . . هزيمته فى أن يقيم لنفسه شخصية مستقلة عن أبيه . . شخصيته كطالب حر مكافح يتحمل مسئولية فرض قوته لإنقاذ مصير الوطن . . وهو كشخصية مستقلة عن أبيه دخل السجن . . ولكنه لم يبق فيه إلا ساعات حتى فرضت شخصيته المقيدة بأنه مجرد ابن لأبيه نفسها على المسئولين فأفرجوا عنه وحده دون باقى الأبناء لآباء آخرين . .

ماذا حدث ليلتها ؟

لقد استمر اجتماع شلة الأصدقاء فى شقة فتحى إبراهيم حتى الساعة الثانية صباحا وهم يناقشون موضوع المنشور الجديد الذى قرروا إصداره . . ثم فجأة داهم البوليس الشقة وقبض عليهم كلهم . . واستسلموا صاغرين هادئين . . كأنهم لم يفاجئوا . . رغم أن معظمهم يقبض عليه لأول مرة . . وكانت أم فتحى وأبوه قد استيقظا على ضجيج البوليس . . ووقفت الأم مبهورة وعيناها معلقتان فى جزع وشفتاها تتحركان دون كلام . . كأنها تردد فى داخلها آيات من القرآن أو دعوات لله . . وأبوه واقف مبحلقا فى ابنه وحده دون من حوله ، وهمس والبوليس يشده خارجا :

ـ شد حيلك ياابنى . .

لم يودعهم فى الشقة صراخ أو عويل أو أى محاولة لتحدى عساكر البوليس . . كأن ما حدث يعتبر حدثا طبيعيا تتعرض له دائما حياة الناس . . حياة الناس الغلابة . .

ولكن . . كيف عرف البوليس أنهم يجتمعون فى شقة فتحى إبراهيم . . ومن أبلغهم . . هل بينهم جاسوس من جواسيس البوليس . . إنه لا يدرى . . وقطب مصطفى حاجبيه وعلت وجهه ملامح السخط وقد مر عليه خاطر أسود . . ربما اتهمه زملاؤه الأصدقاء بأنه هو الذى كان ينقل أخبار اجتماعاتهم إلى البوليس . . أنه الوحيد الغريب عنهم وعن حياة الغلابة . . إنه ابن المليونير الذى يتعارض مع كل ما فى حياته مع كل ما فى حياتهم . . ثم سأل مصطفى نفسه . . ترى هل كان البوليس يمكن أن يفاجئهم ويقبض عليهم لو كانوا مجتمعين فى بيته هو . . بيت المليونير رضوان

الدسوقى . . لا يظن . . . كان كل ما يمكن أن يحدث بعد أن تصل أخبار هذه الاجتماعات إلى البوليس هو أن يتصل وزير الداخلية بأبيه ويرجوه أن يحرم على ابنه عقد هذه الاجتماعات فى بيته . . حتى يضطر الطلبة إلى عقد اجتماعاتهم فى مكان آخر يستطيعون مهاجمتهم فيه . . وضغط مصطفى على شفتيه كأنه يعض نفسه ويلومها . . لقد كان يجب أن يدعو زملاءه إلى عقد اجتماعاتهم فى بيته حتى يحميهم ويحمى نفسه معهم . . فبيته أكثر أمانا من بيوتهم . . والاجتماع فى داخله أقوى تضليلا للبوليس . . فمن يصدق أن يعقد اجتماع ضد الحكومة فى بيت صديق الحكومة المعروف . .

وهو لم يأبه ساعة أن قبض عليه مع زملائه . . لم يجزع ولم يرتعد . . وبالعكس . . أحس كأنه يزداد فخرا بشخصيته المستقلة . . وأحس كأنه يتباهى بوصوله إلى قمة البطولة الوطنية . . وكل زملائه لم يأبهوا بالقبض عليهم . . ومنذ أن جمعهم البوليس فى السيارة الكبيرة التى حملتهم إلى سجن القلعة وهم يتضاحكون . . ويتبادلون النكات . . لم يعكر على واحد منهم حتى ذكر ماسيصيب عائلته عندما تفاجأ بأن ابنها غاب عنها . . لابد أنهم سيعرفون ماذا حدث لأبنائهم . . إنه حدث يتعرض له كل أبناء الغلابة . . ثم بعد أن جمعهم السجن فى زنزانة وألقوا بأنفسهم فوق الأرض العارية وفى يد كل منهم بطانية ألقاها الحارس فى وجهه . . لا يزالون يتضاحكون ويتبادلون النكات . . ولا يحاولون النوم . . بل إنهم بعد أن شبعوا من الضحك بدأوا يناقشون فى جدية مشروع المنشور الجديد الذى قرروا اصداره . .

إلى أن كان صباح اليوم التالى . . وارتفعت ضحكاتهم وصرخوا

بالنكات وهم يتبادلون أطباق العدس الأسود والأرغفة التى تبدو كأنها مخلفات عجل جاموس . . ورغم ذلك يأكلون فى نهم كأن مجرد وجودهم معا يفتح الشهية . . وكانت الساعة قرابة الظهر عندما دخل عليهم ضابط من ضباط السجن ونادى على اسم . . مصطفى رضوان الدسوقى . . ثم ابتسم له ابتسامة محترمة عندما انتصب مصطفى أمامه . . وقال فى أدب :

— تفضل معى . .

وساد صمت مفاجىء على كل الأصدقاء . . ولا يدرى مصطفى كيف قدروا فورا أنه استدعى للإفراج عنه . . والإفراج عنه وحده . . إنهم لا ينسون أنه ليس منهم . . ثم ارتفع صوت سامى وهو يضج بالغيظ من هذه المفاجأة :

— لا تنس أن تطمئن عائلتى . .

وقال مرتضى كأنه يسخر منه :

— سلم لى على أمى . . قل لها إن كلها يومين وأعود إليها لتفرح بى . .

وشده محيى الدين عبد السلام من جانب الضابط وهمس فى أذنه :

— إنى احتفظ بالباقى من أوراق المنشورات فى البيت . . وأخشى أن يفتشوه . . قل لنهى أن تتصل بأختى وتأخذ المنشورات خارج البيت أو تحرقها . .

ولم يحاول ضابط السجن حرمانه من تلقى هذه الهمسات كأنه

يحترمه منتهى الاحترام . . إلى أن خرج به من الزنزانة . . وفتحى إبراهيم يصيح وراءه من خلال ضحكة عصبية :

ــ لاتنس أن تأكل لى قرطاس دندورمه . . فإنى فى شوق للدندورمه . .

واستمرت إجراءات الإفراج ساعات وهم يعاملون مصطفى كأنه ضيف هام . . فإن أمر الإفراج عنه وصلهم من مكتب الوزير فلابد أنه شخصية هامة . . حتى أن مأمور السجن أصر على أن يقدم له كوبا من الشاى وهو جالس فى ضيافته . . ومصطفى يعانى من ثورة نفسية تمزق صدره . . كيف يفرج عنه وحده . . وماذا سيقول عنه زملاؤه وكيف سيواجههم . . حتى بدأ يفكر فى أن يرفض الإفراج عنه إلا مع زملائه . . ويصر على أن يبقى فى السجن معهم . . ولكن هل من حقه أن يرفض الإفراج ويفرض نفسه على الحكومة كسجين . . إنه يبقى فى السجن مطالبا بالعدالة . . فإما أن يبقى كل المشتركين فى عمل واحد داخل السجن . . وإما أن يطلق سراحهم جميعا . . ولكن متى كانت الحكومة حريصة على العدالة . .

وظلت الثورة مشتعلة فى صدره حتى وجد نفسه خارج السجن ثم داخل البيت . . واشتدت ثورته حتى أعلنها فى وجه أبيه . . ثم هرب منه وسجن نفسه فى غرفته . . وألقى نفسه راقدا على فراشه الوثير وصورة زملائه وهم راقدون على أسفلت الزنزانة تلح على خياله حتى تكاد تطلق دموعه . .

وبدأ يسائل نفسه . . هل يذهب إلى كليته صباح الغد . . كيف يواجه الطلبة وهو الوحيد الذى أفرج عنه . . ربما ثار عليه الطلبة واتهموه علنا بأنه هـ الذى وشى بزملائه إلى البوليس وهو مطمئن أنه

لن يسجن معهم . . وربما عادوا يصبون عليه نقمتهم ويعايرونه بأنه ابن المليونير المعروف رضوان الدسوقى . . وأنه لا يمكن أن يكون منهم أو يكون مخلصا صادقا فى أى حركة وطنية يقومون بها . . وربما اعتدوا عليه حتى يفرجوا عن تمنياتهم بالاعتداء على أبيه وأمثال أبيه . . إنه لن يستطيع أن يدخل الكلية وحده حتى لو التف حوله فيها بضعة من الطلبة المنافقين الذين يعرفهم . . المنافقون لأصحاب الملايين وأبنائهم . .

لا . . لن يدخل الجامعة إلا بصحبة زملائه بعد الإفراج عنهم . .

ولكنه يريد أن يرى نهى . . ولو لمجرد إبلاغها بالرسالة التى حملها له محيى الدين عبد السلام . . كيف يراها ويلقاها ؟

وأمه تعود بين حين وحين وتنقر على باب غرفته وهى تصيح باكية مستجدية حتى يفتح لها . . لمجرد أن تراه وتطمئن عليه . . إلى أن غلبته شفقته عليها وفتح لها الباب . . وجلست ملتصقة به وهى لا تكف عن الكلام . . وهو لا يستمع إليها . . لا يحس بيديها وهى تتحسسه وتربت عليه . . بل إنه استسلم إليها منقادا وهى تشده إلى المائدة لتناول طعام العشاء . . وتركها تدس اللقم فى فمه كأنه طفل غير قادر على إطعام نفسه . . وعقله كله ساهم . . هل يذهب إلى الجامعة . . وكيف يقابل نهى . . ثم كأنه ضاق بهذا الاستسلام لأمه فقفز من أمامها . . ودخل غرفته وأغلق الباب وراءه بالمفتاح حتى يطمئن إلى أن والده لن يفتحه عليه كعادته بعد أن يعود من عمله كل مساء . .

ى ضائعا مع أفكاره التى تنهك عقله . .

* * *

وفى الصباح الباكر خرج مصطفى من البيت وقد تعمد ألا يرى أباه وإن كان قد مر بأمه كأنه يودعها . . وركب سيارته . . وهو لا يدرى إلى أين . . كل ما يريده ألا يراه أحد أو يرى أحدا . . كأنه يتستر على فضيحته . . فضيحة إفراج الحكومة عنه وحده . . وجرى بالسيارة فى سرعة جنونية إلى أن وصل إلى صحراء الهرم وتوقف فى ركن . . وألقى نفسه غارقا فى أفكاره . . ثم خاف على نفسه من الزهق من وحدته ومن ثقل أفكاره عليه فانطلق بالسيارة إلى طريق الفيوم . . وانطلق فيه بالسرعة المجنونة . . إن قيادة السيارة تخفف من عذاب فكره . . إنه يقود بهذه السرعة كأنه مستسلم لكرابيج تنهال على ظهره وتعذبه عذابا يلهيه عن أفكاره التى يتعذب بها . .

وكانت الساعة قد تعدت الواحدة وقاربت الدراسة فى كلية الهندسة على الانتهاء . . فعاد بسيارته ووقف بها قريبا من أبواب الجامعة . . وبحيث يستطيع أن يرى محطة الأتوبيس التى تعودت نهى أن تنتظر فيها لتعود إلى بيتها . . وبعد فترة لمحها من بعيد وهى قادمة . . فانطلق بسيارته إليها ووقف بها قبالتها حتى كاد يدهمها وصوت الفرامل يزعق كأنه يصرخ . .

وقالت نهى بمجرد أن شاهدته فى فرحة :

ــ هل أفرج عنكم ؟

وقال متعجلا :

ــ أرجوك . . اركبى . . الأمر مهم . .

وتلفتت نهى حولها كأنها تحاول اكتشاف من يرقبها ثم قفزت إلى داخل السيارة جالسة بجانبه وقالت :

ــ إنى لم أر أحدا من الزملاء الأصدقاء داخل الكلية . .

ولم يرد عليها مصطفى مباشرة وقاد سيارته بسرعة مبتعدا عن عيون الطلبة ثم وقف بها تحت الكوبرى القريب . . وقال وهو يزفر أنفاسه ودون أن يواجهها بعينيه :

ــ لقد أفرج عنى وحدى . .

وشهقت نهى كأنها صدمت وقالت فى سخط :

ــ وحدك . . لماذا وحدك . . لأنك ابن صاحب العزة والفخامة والسيادة المليونير . . أما باقى الزملاء فهم من أولاد الغلابة . . ومن حق سيادتك أن تكون حرا . . أما هم فليس لهم حق الحرية . .

وقال مصطفى وهو ينظر إليها فى لوم :

ــ إنهم أكثر حرية منى . . إن من حقهم أن يبقوا فى السجن . . أحرارا فى السجن . . أما أنا فقد أفرج عنى رغم أنفى . . إنهم لا يزالون فى السجن محتفظين بآرائهم . . أما أنا فإن البوليس لا يعتبرنى كأنى صاحب رأى إنما الرأى المفروض على هو رأى أبى . . كأنهم أفرجوا عن أبى لا عنى . .

وقالت نهى وهى تبتسم هذه الابتسامة الواسعة التى تعودت أن تظلل بها مناقشتها . . ووجهها متجهم يضج بالسخط :

ــ متى أفرج عنك ؟

وقال فى صوت خافت كأنه خجل من فضيحته :

ــ أمس . .

وقالت نهى كأنها تسخر منه دون أن تخفف عنه ابتسامتها :

ــ أى بقيت فى السجن ساعات . . هذا كثير على أبناء الطبقة المدللة . . ولكن لماذا لم تدخل اليوم الكلية ليكون لقاؤنا طبيعيا . .

وقال مصطفى وكأنه ناقم على نفسه :

ــ لم أكن أستطيع أن أواجه الطلبة بعد أن أفرج عنى وحدى . . وأواجه نقمتهم . . ولكنى عرضت نفسى لمواجهة نقمتك لثقتى فى صداقتك ولأنى تعودت عليك ناقمة على . .

ثم التفت إليها كأنه استطاع أن يقاوم نفسه وقال فى حزم :

ــ دعينا الآن من هذا الكلام . . فهناك ما هو مطلوب منك . . إن محيى الدين عبد السلام يريدك أن تذهبى إلى أخته وتبحثا عن كمية باقية من أوراق المنشورات لا يزال يحتفظ بها . . وتقوما بحرقها أو تهريبها لأنه يخشى أن يقوم البوليس بتفتيش البيت . . ومرسى ومرتضى يطلبان الاتصال بعائلتهما وطمأنتهما على أنهما يعاملان معاملة طبيعية داخل السجن . .

وقالت نهى فى حماس كأنها قررت التطوع فى حرب :

ــ سأبدأ الآن بزيارة أخت محيى . .

ومد مصطفى يده فى جيبه وأخرج مجموعة من الأوراق المالية وقال وهو يناولها لنهى :

ــ هذه تسعون جنيها بقيت من حساب الحركة . . احتفظى بها معك . .

وقالت نهى وهى تنظر إليه كأنها لا تفهمه وتقبض كفها حتى لا يلقى فيه بالمبلغ :

ــ إنك مهما كان ما حدث لا تزال أمينا للصندوق . . وأنت المسئول عن توفير أى مبلغ يخص الحركة . .

وقال مصطفى فى تصميم كأنه لا يقبل المناقشة :

ــ لقد قررت أن أبتعد عن كل ما يتصل بالحركة ما دام زملائى فى السجن . . ورغم أن والدى وعدنى بالإفراج عنهم قريبا إلا أنى لست مطمئنا لوعده . . وأغلبية الأصدقاء لم يكونوا معنا فى ليلة اجتماعنا فى شقة فتحى إبراهيم ولم يقبض عليهم : . وقد يفكرون فى إصدار منشورات، بل يجب أن يقوموا بحركة إلحاح للافراج عن الأصدقاء . . وهم فى حاجة إلى تمويل هذه الحركة . . (وابتسم ابتسامة ضعيفة مستطردا) . . اعتبرى نفسك نائبة أمين الصندوق . .

وقالت وهى تفتح كفها لتلقى المبلغ كأنها وافقت :

ــ هل هناك مطالب أخرى . .

وقال مصطفى وهو ينظر إليها مبتسما فى رجاء :

ــ إنه مطلب خاص . . لا أدرى إذا كان من حقى أن أطلبه أم لا . . فإن موعد الامتحانات قد اقترب . . وأنا مصمم على أن أنجح هذا العام . .

وقاطعته نهى ساخرة فى مرارة :

ــ لماذا لا تنتظر أن يفرج عن باقى الشلة حتى تتقدموا إلى الامتحان معا وتنجحوا معا . . حتى لا تنجح وحدك كما أفرج عنك وحدك . .

وقال وهو يحنى رأسه مستسلما لتهجمها عليه :

ـ إنهم وهم فى السجن أصبح من حقهم أن يطلبوا الكتب ويقضوا الوقت فى المذاكرة ويتقدموا للامتحان . . كثيرون من الطلبة نجحوا وهم داخل السجن . . وأنا سأسجن نفسى داخل بيتى . . وهو سجن أعنف وأقسى من سجنهم . . لأنه سجن انفرادى . .

وسكتت نهى وهى تلوى شفتيها كأنها قرفانة واستطرد مصطفى قائلا :

ـ إنى أتمنى لو أسبغت على جميلا وأنا مسجون بأن تتصلى بالزملاء ليعطوك أوراق المحاضرات لأسجلها لنفسى وأعيدها إليهم ويحددوا لك مواضيع الدروس التى تلقوها وأنا غائب عنهم حتى أدرسها . . فقد قررت ألا أتصل بأى زميل مهما كان صديقا . . كما أنى أرجو ألا تصارحيهم بأنك تجمعين هذه الدروس والمحاضرات من أجلى . . إنى واثق أنك تستطعين التحايل عليهم . . لو قبلت أن تأسرينى بهذا الجميل . .

وتوقفت برهة كأنها مترددة ثم قالت وهى تمد يدها تفتح باب السيارة :

ـ سأحاول . .

وقال بسرعة :

ـ سنلتقى هنا غدا . . تحت الكوبرى فى مثل هذه الساعة . .

وقالت وهى تقفز من السيارة :

ـ لا . . ليس غدا . . بعد غد . .

وصاح يستوقفها :

ـ انتظرى إلى أن أصل بك قرب بيتك . .

وقالت دون أن تنظر إليه :

ـ لا . . هذا يكفى . .

وأسرعت فى خطاها مبتعدة عنه كأنها تهرب من الهموم التى صبها عليها . .

* * *

الفصل الثامن

كان الأب رضوان الدسوقى جالسا فى انتظار ابنه مصطفى ليتناول معه طعام الغداء كما كانت عادته . . ولكن هذه العادة أصابها الخلل منذ أيام طويلة . . وقد أصبح ابنه لا يجلس معه لتناول الغداء . . بل إنه يتعمد ألا يجتمع به أبدا . . وهو يعلم أنه الآن فى البيت مختف عنه فى غرفته مدع أنه متفرغ لدراسته وأنه سبق أن تناول الغداء وحده . . وأمه تؤكد له أنه فعلا تناول الغداء وحده قبل أن يعود أبوه من عمله . . ورغم ذلك فالأب لا يزال يجلس منتظرا ابنه . . إنه لا يستطيع أن يتنازل عن إحساسه بالنظام الذى فرضه على نفسه وعلى العائلة . . إلى أن تحين الساعة التى يحددها هذا النظام لتناول الغداء . . ولا يجد دافعا يدفعه إلى الإخلال بالنظام وأن يمد فى ساعات انتظاره كما كان يفعل كلما غاب عنه ابنه . . إنه يائس من أن يعود إليه ابنه .. ويضطر إلى الجلوس إلى المائدة مع زوجته وحدهما . . يلقى باللقمات فى جوفه وهو هائم مع ابنه كأنه فى حالة حب مقهور . .

وكان لا يكف عن سؤال نفسه . . ماذا يريد من ابنه وماذا يريد له . . وهو لا يريد له إلا أن يعيش فى قمة الطبقة الاجتماعية . . طبقة السيادة والثراء . . بعد أن قفز به من الطبقة التى عاش هو ووالده فيها . . طبقة الخدم الغلابة المستسلمين . . ولكن . . أين هى اليوم طبقة السيادة والثراء . . إنه هو نفسه بعد أن أصبح يملك كل هذه

الملايين لا يعتبر نفسه ممثلا لطبقة . . إنه لا يمثل إلا نفسه . . ولا يزال يعيش وهو مهدد لو تخلى عنه ذكاؤه لحظة أن تضيع منه ملايينه ويطرد شر طردة بعيدا عن مسئولياته ويعود غلبان شحاذا كما كان أبوه . . إن مصر لا تحكمها طبقة اجتماعية ذات سيادة إنما يحكمها مجرد مجموعة من الأفراد . . كل فرد قائم بذاته . . وأيام زمان . . أى قبل الثورة . . كانت مصر تحكمها طبقة السيادة . . وهى طبقة كانت تفرض واقعها بملكية الأرض . . كل الأرض . . وكانت قد استطاعت عبر مئات السنين أن تضع لنفسها تقاليد ومظاهر اجتماعية ترفعها عن باقى طبقات الشعب . . وكانت تتوارث السيادة بتوارث ملكية الأرض . . إلى أن قامت الثورة فضاعت سيادة ملكية الأرض وتمزقت حتى لم تعد الأرض قادرة على خلق طبقة تمثلها . . كما أنها ثورة لم تعتمد على طبقة متآلفة منظمة . . ولم تضع تقاليد ولا مظاهر اجتماعية مستقرة تكفى لحماية طبقة . . لم تضع إلا نظاما للحكم ينفرد الحاكم بالسيطرة عليه . . ولا تستطيع أى مجموعة أو أى فرد أن يشارك الحاكم فى سيطرته . . ليس لمصر حتى اليوم طبقة حاكمة . . ليس لها إلا حاكم واحد منفرد بنفسه . . وقد يصل فرد من الأفراد بشطارته أن يضع نفسه قريبا من الحاكم ويحظى بثقته فيه واعتماده عليه . . وقد يصل أحد الأفراد إلى تحقيق صفقات مذهلة ترفعه إلى مستوى أصحاب الملايين . . ولكن كل هؤلاء لا يمثلون طبقة مستقرة من طبقات المجتمع المصرى . . ويبقون دائما مجرد أفراد لا قيمة لهم . . والقريب من الحاكم قد يبعد ويصبح فردا عاديا من الغلابة لا يساوى شيئا . . وصاحب الملايين يعيش مهددا بأن يغضب عليه الحاكم يوما ويحرمه من ملايينه . . أو قد يهرب هذه الملايين إلى خارج مصر ويهرب معها . . أين الأفراد الذين كنا نردد أسماءهم أيام الحاكم جمال عبد

الناصر . . ثم الأسماء التى ظهرت أيام أنور السادات . . لقد اختفت كلها . . ضاعت . . لأنها أسماء لأفراد لا يمثلون طبقة مستقرة تتوارث نفسها . . إلا فردا أو اثنين استطاعا أن ينتقلا من رضاء حاكم إلى رضاء الحاكم الآخر . .

وابتسم رضوان الدسوقى ابتسامة مرة وهو مستطرد فى تفسيراته السياسية التى تعود عليها إلى حد الإدمان منذ كان صبيا . . واستطرد يسائل نفسه عما يريده من ابنه . . لقد كان غبيا أو مغرورا بنفسه وهو يطالب ابنه بأن يحصر نفسه داخل الطبقة الراقية العليا التى تعيش منتهى الرخاء والسيطرة الاجتماعية . . ويبتعد مترفعا عن طبقة الغلابة التى لا تملك سوى الأحلام التى تدفعها إلى الثورة والانطلاق فى مظاهرات سياسية أو إصدار منشورات أو القيام بعمليات عنيفة يسمونها أعمالا فدائية . . إن هذا التفريق بين الطبقات ليس تفريقا واقعيا . . وقد يهرب أبناء الأغنياء من فكرهم بأن ينهاروا فى منتهى الانحلال والصرمحة . . أو يكونوا من الغباء بحيث لا يقدرون من الحياة إلا مظاهرها . . أما إذا سيطر عليهم فكر سياسى وطنى واقعى فسيجدون أنفسهم حتما مشتركين مع نفس فكر الغلابة . . إنه هو نفسه بعد أن أصبح مليونيرا يعترف بأنه لا يزال محتفظا بعقلية الغلابة . كل ما تغير فيه هو مظاهر حياته . . لقد أصبح يقيم فى قصر بعد أن كان يقيم فى حارة . . وأصبح يضع نفسه فى سيارة فاخرة بعد أن كان لا يملك إلا أن يسير على قدميه فوق حذاء قديم . . والذى يفرق بينه وبين ابنه . . أن فكره كان يهرب به من التعرض للمصارحة الوطنية رغم إيمانه واقتناعه بها لأنه كان متعلقا بهدف أكبر . . وهو أن ينقل نفسه من بين الغلابة إلى أن يكون فردا ثريا واسع الثراء . .

ولكن ابنه وجد نفسه وقد ولد ثريا فلم يعد مضطرا إلى أن يهرب من فكره المرتبط بفكر الغلابة فعاش معهم أحلامهم وبدأ يساهم فى عملياتهم السياسية الوطنية . .

ورغم ذلك . . يجب أن يجد لابنه طريقا ليعيش به حريصا على صيانة هذا الوضع الذى ولد فيه . . إن ابنه سيرثه وهو يريد أن يطمئن إلى أنه سيصون ملايينه . . بل ويتمنى أن يستطيع أن يزيد عليها ملايين . . ولا يضيعها بانقياده إلى الغلابة . .

وقفز من جانب المائدة قبل أن يتم غداءه كأنما استقر على فكرة . . واندفع إلى غرفة مصطفى وهم أن يفتح الباب ولكنه وجده مغلقا بالمفتاح فقرع عليه صائحا :

ـ افتح يا مصطفى . . أريد أن أتحدث إليك . .

ومرت لحظات كأن مصطفى لن يفتح له الباب . . ولكنه فتح له . . وكانت رأسه منكسة كأنه لا يريد أن يرى أباه . . ثم تركه يدخل وهو يدير ظهره له .

وجلس الأب على مقعد من مقاعد الحجرة كأنه قرر أن يبقى فيها طويلا قائلا :

ـ إن تعمدك الابتعاد عنى لن يحل أى مشكلة . .

والتفت إليه ابنه قائلا فى عنف مهذب :

ـ إن المشكلة الوحيدة هى الإفراج عن زملائى الذين قبض عليهم وأنا معهم ومنهم . . وقد مرت إلى الآن ثلاثة أسابيع ولم يفرج عن أى واحد منهم . .

وقال الأب مستهينا :

ـ وماذا كنت تريدنى أن أفعل . .

وقال الابن فى حدة ساخطة :

ـ إنك صديق لرئيس الحكومة . . وقد استطعت بصداقتك له أن تخرجنى من السجن . . ووعدتنى بأنه سيفرج بعدى عن بقية زملائى . .

وقال الأب وهو ينظر إلى إبنه كأنه يشفق عليه من سذاجته :

ـ إن أى رئيس ليس له أى صديق . . كما تتصور معنى الصداقة . . إنما الرئيس لا يربطه بأى فرد إلا حاجته إلى التعامل معه . . وحاجتهم إلى التعامل معى ربما لا تساوى أكثر من الإفراج عن ابنى ولا تصل إلى حد الإفراج عن زملاء ابنى . .

وقال الابن وقد ارتفع صوته :

ـ إن قيمة تعاملك مع الحكومة لم تصل إلى حد صيانة كرامة ابنك بين الطلبة . . بل تركته يبدو كأنه قطعة من قمامة الزبالة ألقتها فى الشارع . . ولعل ماما أبلغتك أنى ممتنع عن الذهاب إلى الجامعة . . أتدرى لماذا . . حتى لا أواجه الطلبة بفضيحة الإفراج عنى وحدى . . أى حتى لا أظهر بينهم كمجرد أحد أفراد زبالة الحكومة . .

وقال الأب فى هدوء متحملا ثورة ابنه :

ـ إن امتناعك عن الجامعة أوحى إلى بفكرة . . وهى أن أرسلك لتتم تعليمك فى أمريكا . .

وصرخ الابن :

ـ لن أسافر . . وسأدخل الامتحان القريب . .

وقال الأب فى تأكيد وهو يبتسم كأنه يتحايل على ابنه أن يهدأ :

ـ وأنا واثق أنك ستنجح فى الامتحان . .

وابتسم الابن وقد تخيل أن أباه يضمن له النجاح بأن يسعى بنفوذه لإنجاحه . . كل أبناء الرؤساء وأصحاب النفوذ ينجحون فى كل امتحانات الجامعة دون أن يستوعبوا منها أى كلمة . . بل دون أن يتنازلوا ويواظبوا على تلقى دروسهم . . وأستاذ الجامعة الوحيد الذى اعترض على إنجاح تلميذ من أبناء الرؤساء طرد من الجامعة . . ولا يزال مطرودا حتى اليوم . . بل ظهرت شخصيات بين العائلة الحاكمة منحت شهادة الدكتوراه رغم أنها لم تكن تحمل أى شهادة جامعية قبل أن تصل عائلتها إلى الحكم . . وأبوه واثق أنه بتليفون واحد إلى المسئول عن الجامعة يستطيع أن ينجحه فى الامتحان إلى أن يأتى له بشهادة الدكتوراه . .

وقال الابن وكأنه يتحدى أباه :

ـ سأنجح فى الامتحان معتمدا على نفسى . .

وقال الأب ووجهه يتجهم غاضبا :

ـ أنا لم أقصد أن تعتمد على أنا فى نجاحك . . ولكنى واثق فى أنك تستطيع أن تنجح فى أى امتحان تريد أن تنجح فيه . . ولذلك لم أكن أتأثر بما سبق أن رسبت فيه من امتحانات . . لأنى كنت أقدر أنك لا تريد النجاح . . ولكن بما أنك أصبحت تريده فستنجح . . إنك مثل أبيك تنجح فى كل ما تريده . . وترفض أن تنجح فى أى شىء يفرض عليك . .

وهدأ الابن قليلا ثم قال :

ـ لماذا تريدنى أن أترك مصر وأتم تعليمى فى أمريكا . .

وقال الأب كأنه يغرى ابنه :

ـ إن أمريكا هى قمة العلم والتعليم . .

وقال الابن ساخرا :

ـ سأوفر عليك تكاليف القمة وأتم تعليمى هنا مع الغلابة . .

وقال الأب مبتسما :

ـ لقد انتقلت أنا نفسى إلى أمريكا . . وبدأت التفكير فى إقامة مكتب لنا هناك . . فى شيكاغو . .

وبرقت الدهشة فى عينى مصطفى وقال وهو مبحلق فى وجه أبيه :

ـ ماذا تفعل فى أمريكا . . إننى أفهم أن كل أعمالنا تقوم على تمويل مشروعات . . أى أن حضرتك يا بابا مقاول تمويل . . كما يوجد مقاول للتنفيذ . . ومقاول عمال . . ولكن مصر ليست فى حاجة إلى مقاول لتمويل مشروعاتها من أمريكا . . إن التمويل يتم مباشرة بين الدولتين . . الحكومة الأمريكية تمد الحكومة المصرية بالدولارات فى شكل قروض أو إعانات بشرط أن تتولى هى إقامة هذه المشروعات حتى تعود دولاراتها إليها أو لا تخرج من سلطاتها . .

وقال الأب وهو يبتسم فرحا بأن ابنه يناقشه فى موضوع جاد :

ـ إنهم فى أمريكا لا يؤمنون بأن الحكومات تستطيع تنفيذ المشروعات . . إنهم يقصرون اتفاقهم مع الحكومة على تمويلها بالقروض والمعونات ولكن تنفيذ المشروعات التى تقوم على هذا

التمويل يجب أن تتولاه شركات خاصة . . حرة . . أى أنهم لا يتعاملون مع ما نسميه القطاع العام ولكنهم يصرون على التعامل مع القطاع الخاص . . وهذا هو النظام الاقتصادى فى أمريكا نفسها . . أو ربما كانت عقلية الإدارة الأمريكية تجد أن التعامل مع النظام الخاص أسهل فى فرض سيطرتها عليه والاطمئنان إليه من التعامل مع القطاع العام التابع للحكومة فإنه معرض دائما للتأثر بالخلافات السياسية التى تطرأ على العلاقة بين الدولتين . . ولذلك فقد اضطرت الحكومة المصرية إلى توزيع الدولارات التى تمدها بها أمريكا على رجال القطاع الخاص الذين يستطيعون تنفيذ المشروعات . . وكثير من المشروعات الخاصة تحل الآن برؤوس أموال القروض والمنح الأمريكية . . حتى شركات الطباعة والنشر التى تصدر كل ما يمكن أن يقرأه الشعب بدأ معظمها فى استغلال الدولارات التى منحتها أمريكا لمصر فى تجديد مطابعها وآلاتها وتطويرها حتى تصل بها إلى مستوى القمة العالمية . . بموافقة أمريكا طبعا رغم ما يقال من أن الحكومة المصرية ليست مسئولة عن شركات النشر مسئولية مباشرة . .

وقال الابن مقاطعا فى سخط :

— أى أن أمريكا أصبحت اليوم هى المسئولة عن كل ما يقرؤه الشعب المصرى . . فالممول هو صاحب الحق الأول فى تحديد ما ينشر ليقرأ . .

وقال الأب وهو لا يزال محتفظا بفرحته بمناقشة ابنه :

— المهم هو قيمة التمويل . . وفى لندن وباريس تصدر الآن صحف عربية . . ومجلات ومنشورات رائعة تغذى العقل العربى

بمعلومات ودراسات راقية . . وكلها يعتمد أصحابها على تمويل خارجى . . ليس التمويل الأمريكى وحده بل تمويل متعدد المصادر . . بما فيها مصادر البترول العربى . . وقد يكون تمويلا روسيا . . وهو اختلاف مصادر التمويل . . والفرق الأكبر والواضح بين هذه المطبوعات هو فى قيمة التمويل الذى يحدد مستوى قيمة المطبوعات ومستوى قوة اجتذابها للقارىء . .

وهم مصطفى أن يقاطع أباه ولكن أباه صده مستطردا قائلا :

— دعنا فى المهم . . إن المنافسة القوية الخطيرة القائمة اليوم فى مصر هى المنافسة القائمة بين شركات القطاع الخاص ورجال الأعمال المستقلين ليصل كل منهم إلى رضاء الحكومة حتى تمنحه جزءا من مبالغ الديون والمعونات الأمريكية ليقوم بتنفيذ مشروع من مشروعاتها . . وأبوك ليس مجرد مقاول تمويل . . كما تقول . . إنى لست مجرد بنك يسعى لجمع الإيداعات من رؤوس الأموال . . ولكنى أيضا مقاول تنفيذى تحققت على يدى كثير من المشروعات . . ولو أنى أكره وأرفض وصفى بأنى مقاول . . بل إنى أرفض أن أوصف بأنى رجل أعمال . . إنهما صفتان تحددان مهنة تحيطها كثير من الشبهات والاتهامات . . وأفضل أن يعرفنى الناس كمجرد ابن من أبناء مصر يعيش فى خدمة وطنه . . إن طلعت حرب لا يوصف بأنه مقاول أو رجل أعمال . . بل إنه يعرف بأنه زعيم الاقتصاد الوطنى . . وأنا لا أتطلع إلى أن أكون زعيما كطلعت حرب ولكنى أتمنى أن أعرف بأنى مجرد واحد من مريديه يستمد منه عبقريته . . وقد استطعت بعبقريتى أن أقنع الحكومة بأن تضع بين يدى ميزانية ضخمة من ملايين القروض والمنح الأمريكية . . ملايين الدولارات . . لتنفيذ

مشروع اتفق عليه بين الدولتين . . وهو مشروع مد خط سكة حديد يصل إلى اخر حدود مصر الغربية . . أى إلى أبعد من مرسى مطروح بعدة كيلومترات . . وهو مشروع قديم تحلم به مصر من عشرات السنين . . لأن خط السكة الحديد القائم حتى اليوم على هذه الناحية هو خط واحد منفرد لا يحقق ارتباط مصر بعضها ببعض من أولها إلى آخرها . . وأنا واثق أنى سأحقق هذا المشروع . . وقد وجدت منذ البداية أنى يجب أن أكون على صلة بالادارة الأمريكية وأنى يجب أن يكون لى مكتب هناك يتولى استيراد الآلات والمعدات والخبراء والتفاهم مع المسئولين . .

والابن يستمع إلى أبيه مركزا كل عقله ليستوعب ويفهم كل كلمة . . وسكت لحظة ثم قال كأنه يحادث نفسه :

ــ لعل مصر تفكر فى هذا المشروع كمشروع مدنى لخدمة الشعب . . ولكن أمريكا وافقت عليه كمشروع عسكرى يوفر لها متطلبات السيطرة العسكرية على كل المنطقة . . حتى لو أخفت هذه السيطرة وراء مشروع يبدو كأنه مشروع برىء لتحقيق النهضة المصرية . .

وقال الأب وهو ينظر إلى ابنه فى إشفاق :

ــ إن كل مشروع مدنى عام يشمل التخطيط العسكرى . . لو أقمنا كوبرى صغيرا على النيل ليمر عليه أهالى الضفتين . . فستمر عليه أيضا القوات العسكرية . . والمهم هو تحديد من له حق المرور . . هل هو حق قاصر على القوات المصرية أو هو حق أيضا للقوات الأمريكية . .

وسكت الابن برهة أخرى ورأسه قد أحناها ثقل أفكاره . . ثم رفع رأسه قائلا فى تصميم :

ــ اسمح لى يا بابا أن أطالبك بأن تبعدنى عن مسئولياتك . . إن لى مسئوليات خاصة . . ولن أسافر إلى أمريكا . . لأن مسئوليتى تفرض على أن أبقى هنا . . إنى مقتنع بأن الجهاد يجب أن يبدأ فى الداخل حتى نصل إلى القوة التى نواجه بها الخارج . . نواجه بها التعامل مع أمريكا . .

وقام الأب واقفا من على مقعده وقد تجردت ابتسامته من الفرحة وأصبحت كأنها ابتسامة رجاء وتوسل :

ــ لقد عودتك على أن أتركك حرا فى مسئوليتك عن نفسك . . وكل ما أتمناه هو أن تستمر فى التفكير فلعلك تقنع نفسك باستكمال دراستك فى أمريكا . .

وقال الابن كأنه يحتفظ بشخصيته أمام أبيه :

ــ لن أقتنع . . فإنى أحس كأنك تريد أن تبعدنى عن الحركة الوطنية التى أصبحت مقتنعا بها مع زملائى فى الجامعة . .

وقال الأب وهو لا ينظر إلى ابنه :

ــ إن الحركة الوطنية مفروضه على كل مصرى سواء فى الداخل أو الخارج . .

ثم عاد ينظر إلى ابنه وهو خارج من باب الغرفة قائلا بلهجة آمرة :

ـ إن ما أريده منك هو أن تعود وتواظب على تناول الغداء معى لنتبادل المناقشة . . فإن هذا التباعد لن يحل أى مشكلة أو اختلاف فى الرأى بيننا . .

وقال الابن فى أدب كأنه عاد مستسلما إلى أبيه :

ـ حاضر . .

* * *

الفصل التاسع

وعـاد مصـطفى يجلس إلى مكتبه داخل غرفته يستذكر دروس ومقررات كلية الهندسة . . ويحاول أن يبعد عن فكره كل ما سمعه من أبيه حتى يتفـرغ للمـذاكـرة . . إنـه مصمم على أن ينجح فى الامتحان . . إنه لا يمكن أن يترك نهى تذاكر بينما هو لاه مترفع عن المذاكرة حتى سبقته فى سنوات الدراسة وأصبحت فى الفصل الثالث بينما هو لا يزال فى الفصل الثانى . .

وكان قد تعود أن تقفز ابتسامة حلوة إلى شفتيه كلما تذكر نهى . . لا شك أنها كانت بشخصيتها دافعا قويا إلى هذه الحياة الجديدة التى يحياها وهذا الفكر الجديد الذى أصبح مسيطرا عليه . . لقد كانت نهى هى الـدافـع الأقوى الذى عرضه لأن يعيش بشخصية الطلبة الغـلابـة ويتعـرض لما يتعـرضـون إليه . . فتقع على رأسه ضربات البـوليس . . ويقبض عليه ويدخل السجن . . لقـدجـردتـه من شخصية ابن المليونـير رضـوان الـدسوقى ونقلته إلى شخصية قائمة بذاتها . . شخصية أقنعته بنفسه وزودته بقوته الذاتية . . وكان سعيدا بأن وجد شخصيته . . إلى أن أفرج عنه وحده من بين زملاء الذين قبض عليهم معـه . . واكتشف أنـه لا يزال خاضعا لشخصية ابن المليونير . . وكل شىء بدأ يتغير من حوله . . حتى نهى بدأت تتغير . .

وابتسامته التى تقفز إلى شفتيه اليوم وهو يتذكرها ليست حلوة . . إنها ابتسامة مرة . . كأنها ابتسامة مهزوم . . وكانت نهى هى الوحيدة بين أفراد شلة الأصدقاء التى جرى إلى لقائها بعد الإفراج عنه . . وأبلغها مطالب زملائه الذين لا يزالون فى السجن . . وأقنعها بأن تكون نائبة أمين صندوق الحركة الوطنية وأعطاها المبلغ الذى كان متبقياً معه من حساب الحركة . . ثم طلب منها أن تزوده بالمحاضرات الدراسية التى تلقى فى غيابه لأنه قرر ألا يدخل الكلية إلا إذا أفرج عن زملائه . . وربما كان هناك دافع أقوى لأن يجرى للقائها . . وهو شوقه إليها . . إلى الراحة التى يتمتع بها وهو بجانبها . . ومتعته بمروره على كوز الذرة المشوى الذى يفتح شهيته . . .

وكان قد اتفق معها فى لقائهما الأول على أن يلتقيا بعد غد تحت كوبرى الجامعة . . وقد جاءت فعلا إلى لقائه وحملت له بضع أوراق محاضرات استطاعت أن تنقلها له . . ودار بينهما حديث سريع . . بضع كلمات مرصوصة لا تزوده بشىء منها . . وابتسامتها الواسعة التى تفيض بحيويتها منكمشة فى ابتسامة مفتعلة . . وكانت متعجلة كأنها لا تطيق بقاءها بجانبه داخل سيارته . . واعتذرت بأنها مشغولة . . وقبل أن تبتعد عنه أراد أن يحدد موعد لقائهما التالى . . ولكنها رفضت . . وقالت أنها ستتصل به تليفونيا لتحديد موعد اللقاء بعد أن تعد له أوراقا أخرى . . ولم يستطع إلا أن يتركها تبتعد عنه . . كأنه يطلق سراحها ولمحها تبتعد كأنها تجرى هربا منه . .

ومر أسبوع كامل دون أن تتصل به تليفونيا لتحدد له موعد لقاء . . وهو يقاوم أن يذهب إليها هو ويلتقطها من أمام محطة الأتوبيس . . إنه يريد أن يحتفظ بكرامته ولا يضعف أمامها . . إلى أن اتصلت به والتقيا كعادتهما . . تحت الكوبرى . . ولكنه كان أيضا لقاء

فاترا سريعا . . وسلمته بعض أوراق المحاضرات . . ولم تكلف نفسها أن تطلعه على أخبار الكلية . . أو ترحب بالأسئلة التى يسألها . . وتركته بعد أن قالت له من خلال ابتسامة ساخرة وليست غاضبة :

ـــ لم يفرج عن أى أحد من الأصدقاء . . هل أبوك فى صحة جيدة . .

وجرت هاربة . .

ورغم ذلك فقد كان يحس بأنها لا تزال مرتبطة به . . ولولا ارتباطها لما جاءت إليه بحجة تزويده بأوراق المحاضرات الدراسية . . إنه يؤكد لنفسه أنها تراه لأنها لا تستطيع أن تقاوم شوقها إليه . . وهو شوق يؤكد له أنها تحبه . . رغم ظروفها ورغم أنها متزوجة إلا أنها لا تستطيع أن تقاوم مجرد المتعة بلقياه . .

وقد مر الآن أكثر من أسبوعين دون أن تعود للاتصال به حتى تحدد لقاء آخر . . وهو لا يزال معتزا بنفسه ويرفض . . وهو منذ البداية لا يعتمد على الأوراق الدراسية التى يمكن أن تحملها إليه وهو يستعد للامتحان. . ربما كانت هذه الأوراق مجرد حجة افتعل أن يطلبها منها ليبرر لقاءهما . . وهو منذ البداية يعتمد على أساتذة كلية الهندسة الذين اتفق معهم على أن يترددا عليه فى البيت فى دروس خصوصية . . وكل منهم يبذل مجهودا كبيرا معه فى إلقاء درسه . . اهتماما لم يكن يحظى به وهو أمامهم داخل مدرجات الجامعة . . وكل منهم يبدو فخورا بأنه يدرس لابن المليونير رضوان الدسوقى . . أو كان كل منهم سعيدا بأنه لم يجادله أبدا فى قيمة الأتعاب التى يريدها لنفسه . . بل إن كلا منهم كان يوصيه باستدعاء أستاذ آخر من زملائه

فى الجامعة حتى يلقى عليه درسا خصوصيا فى موضوع آخر . . كأن هيئة التدريس فى الجامعة قد اكتشفت كنزا تقتسمه بين أفرادها . . السادة الأساتذة حملة الدكتوراه . .

وقد أصبح مصطفى يتعمد الحرص على تناول الغداء مع أبيه . . وغالبا ما يكون لقاء صامتا أو كلاما عابرا يشمل موضوعات عادية عائلية كأن كلا منهما لا يريد أن يطرق أى موضوعات وطنية أو سياسية . . ولكن مصطفى يواجه أباه كل يوم وفى عينيه سؤال صامت . . هل أفرج عن زملائى . . وهو يقدر أن والده لا شك يفهم هذا السؤال ولكنه يتجاهله ولا يجيب عليه . . وأبوه يسأله بين يوم وآخر :

ـ هل فكرت .

ويرد عليه مصطفى فى كلمة عابرة :

ـ أحيانا أفكر . . ولكنى لا زلت مصمما على رأيى . .

إلى أن مرت ثلاثة أسابيع . . مضى على زملائه فى السجن أكثر من شهر . . ودق التلفون . . وكانت نهى تحدد موعدا للقاء . . تحت الكوبرى . . وهو يطير من الفرحة . . إنها لا تستطيع أن تستغنى عنه أبدا مهما قاومت شوقها إليه . .

وجاءته نهى وهى تبدو كأنها عادت إلى أيام زمان . . ابتسامتها الواسعة تتراقص بين شفتيها . . وانطلاق حيويتها . . ولا تكف عن الكلام . . إنها تروى له أخبار الكلية . . وتحكى له عن أخبار عائلات الأصدقاء الذين لا يزالون فى السجن وتوالى زيارتهم وتشترك معهم فى إعداد مطالبهم التى يرسلونها إليهم داخل السجن . .

وحكايات بعضها كالنكات تثير الضحك . . إلى أن استراحت الابتسامة الواسعة فوق شفتيها وقالت فى هدوء :

ـ لقد أصدرنا منشورا بدأنا توزيعه . . نطالب بالإفراج عن محيى الدين وبقية الزملاء . .

وفتحت حقيبتها وأخرجت كمية من المنشورات ناولتها لمصطفى . . وقرأ مصطفى المنشور بسرعة وملامحه تضج بالحماس وقال :

ـ إنها كلمات رائعة . . صارخة . . مقنعة . . وكان يجب أن يصدر هذا المنشور ويوزع منذ أسابيع . .

وقالت نهى من خلال ابتسامتها الهادئة :

ـ لقد قررنا أن نصدر منشورا آخر . . وفورا . . ولكن نائبة أمين الصندوق أصبحت تشكو الإفلاس وفى حاجة إلى أن يزودها أمين الصندوق بمبلغ آخر . .

وقال مصطفى دون أن يفاجأ بالمطلوب منه وهو لا يزال ممسكا بالمنشور فى يده :

ـ من كتب هذا المنشور . .

وقالت نهى فى تردد :

ـ نحن . .

وعاجلها مصطفى قائلا :

ـ من منا . .

وقالت نهى وهى تحاول أن تعود وتتسع بابتسامتها كأنها تحاول أن تغريه بها :

ـ كلنا واحد . .

وصاح مصطفى :

ـ إنى أسألك عن اسم كاتب المنشور . . وسأسألك عن كيف طبعتموه . . وكيف توزعونه . . وسأسألك عن كل التفاصيل . .

وقالت نهى مبتسمة :

ـ إنها أسرار تعاهدنا ألا نبوح بها . . .

وصاح :

ـ أسرار حتى على . . ألست أمين صندوق الجماعة ؟

وقالت وصوتها ينبض بالسخرية :

ـ إننا نعتبر أن أمين الصندوق لا يزال فى السجن . .

ونظر إليها فى دهشة ساخطة وقال :

ـ حتى الأخبار وكل التفاصيل يمكن أن تصل إلى المسجونين . .

وقالت ساخرة وكأنها تتحمل مناقشة ثقيلة :

ـ إنك لست داخل السجن . . ولكنك سجين خارج السجن . . سجين هارب . . ولا تدرى أين تختبىء . .

وصاح غاضبا :

ـ إنى لست هاربا منكم . . وإن كنت أكتفى بلقائك . . وأنتظر الإفراج عن زملائى حتى أعود إلى الحركة الوطنية . . ومن حقى فى فترة الانتظار أن أعرف كل التفاصيل . .

وقالت نهى ضاحكة :

ـ حقك كممول تدفع من جيبك . .

وعاد يقول ساخطا :

ـ لا يهمنى ما أدفعه . . ولكن كل ما يهمنى هو أن أستكمل إحساسى بالمسئولية . . وهى مسئولية لا تتحقق إلا إذا كنت أحملها معكم . . ونعيش كلنا فى سر واحد . . إن ما تخفونه عن البوليس لا أقبل أن تخفوه عنى . . وإلا كنت بينكم متهما بأقذر تهمة . .

ووضع يده فى جيبه وأخرج مبلغا من أوراق النقد وعاد بكلماته الساخطة :

ـ اسمعى . . هذه مائة جنيه . . لا يهمنى أن أعطيها لك أو أرميها فى الشارع . . فإذا لم تصارحينى بكل التفاصيل وبكل الأسماء فسألقيها فى الشارع . .

وقالت فى إصرار :

ـ لن أصارحك إلا بما اتفقنا على أن أصارحك به . .

وهدأ قليلا وقال فى صوت مبحوح :

ـ كأنكم اتفقتم على طردى من بينكم . .

وصاحت كأنها ترجوه أن يصدقها :

ـ لا . . كيف نطردك وأنا ألجأ إليك لتساهم معنا . .

وقال ساخرا :

ـ ربما كانت الشلة تجازف بإيفادك إلى . . على أمل أن أشفق

عليك ولا أبلغ الحكومة عنك . . ويظلوا هم فى أمان . . أمان منى ومن البوليس . .

ثم رفع يده بالجنيهات التى تحملها ولوح بها أمام عينى نهى قائلا :

ـ حتى لا تتصورى أنى أطالب بأن أكون معكم نظير ما أدفعه للحركة . . وبما أنكم تبعدونى عنكم فلن أعيد هذه الجنيهات إلى جيبى . . سألقيها فى الشارع . . وأجرى أنت ورائها لتجمعيها كأنك وجدتها صدفة حتى لا يكون لى فضل تسليمها لك . . للحركة الوطنية . .

وقذف بالجنيهات من نافذة السيارة لتطير فى الهواء وتسقط فى الشارع . .

وصرخت نهى :

ـ إن الحركة ما دامت فى سبيل الوطن فلن تذل نفسها أبدا أمام الجنيهات ولو وصلت إلى الملايين . . إن عليك أنت أن ترجونا وتتوسل إلينا حتى نقبل جنيهاتك ونشرفها بمساهمتها فى حركتنا . . وهو شرف لك لا يمنحك أى حق . . إلا إرضاء ضميرك الوطنى . . لو كان لك ضمير . .

وقفزت من داخل السيارة تجرى مبتعدة عنه . .

وأطلق سيارته فى سرعة مجنونة مبتعدا عنها . .

والجنيهات على الأرض فى انتظار اليد التى تصل إليها . .

* * *

وزوبعة من أفكار مصطفى تعصف فى رأسه . . ولكنه لا يخطىء نفسه ولا يلومها . . لقد كان على حق . . إنه لم يكن يدفع تبرعا للحركة الوطنية . . ولكنه كان يدفع إحساسا بمسئوليته عن المساهمة فى الحركة . . إنه لا يساوى أى شىء بجنيهاته . . ولكنها تساوى بقدر ما يبذل من فكره ومن المجازفة بنفسه فى سبيل وطنه . .

وراودته ابتسامة عابرة وهو يتصور كأنه نسخة طبق الأصل من أبيه . . إن أباه يعتبر كريما فى توزيع التبرعات والخيرات . . فى منتهى الكرم . . ولكنه لا يدفع مليما واحدا إلا إذا اطمأن إلى مصير هذا المليم . . حتى أنه لا يتبرع إلى أى جمعية خيرية إلا إذا قام بدراستها واستكمل معرفة كل خباياها وأسرارها وتضامن مع أعضائها وعرفهم واحدا واحدا وعرف ما يقوم به كل منهم فى تحقيق أهداف الجمعية . . وكثيرا ما يرفض المساهمة أو التبرع لأنه لا يطمئن إلى مصير الأموال التى يتبرع بها . . خصوصا إذا إذا كان التبرع لهيئة حكومية . . إنه لا يثق فى الضمائر الحكومية رغم أنه يتعامل معها . . فإذا كان مصطفى قد توقف عن أن يدفع للحركة الوطنية التى يقوم بها الطلبة . . فلأنهم لم يعودوا يطمئنون إليه . . ولا يحاولون إقناعه بكشف أسرارهم ففقد هو الآخر اطمئنانه إليهم . . لقد طردوه . . وإن كانوا لا يزالون يريدون أن ينالوا جنيهاته من بعيد . . ولكنه يحس بأنه لو استجاب لهم فكأنه يلقى بجنيهاته فى هواء مجهول . . وقد ألقاها فى الهواء فعلا بدلا من أن يلقيها فى يد نهى . .

ودخل مصطفى على أبيه وهو متجهم الوجه غارق فى الغيظ الثائر وقال فورا :

ـ لن أدخل امتحان الكلية . .

وقال أبوه فى دهشة :

ـ لماذا . .

وقال كأنه يستغيث به :

ـ لأنى سأسافر إلى أمريكا .

وقال الأب وهو لا يزال دهشا :

ـ لماذا لا تسافر بعد الامتحان ولم يبق عليه إلا أسابيع

ومصطفى ينظر إلى أبيه كأنه مغتاظ منه . . لقد كان أبوه يلح فى اختطافه من بين طلبة الجامعة المصرية ليلقى به بين طلبة إحدى جامعات أمريكا . . فلماذا يخفف من إلحاحه الآن ويطلب منه أن يستمر فى الجامعة المصرية حتى ينتهى من الامتحان . . وربما كانت العقلية التجارية المسيطرة على أبيه لا تريد أكثر من أن تستفيد من نفقات تعليم ابنه طوال العام بأن يحصل على شهادة نجاحه فى الامتحان . .

وقال مصطفى فى عنف :

ـ إنه امتحان لا يفيدنى ولست فى حاجة إلى النجاح فيه . . مادمت سأنتقل إلى أمريكا وأمتحن هناك . . فمتى أسافر ؟

وقال الأب فى فرحة كبيرة كأنه يزغرد :

ـ إنك كما أقول عنك دائما . . لا تعرض نفسك لامتحان وتنجح فيه إلا إذا أردت . . ولا يمكن أن تنجح فى امتحان مفروض عليك لمجرد استكمال مظهر النجاح . . ومادمت تريد الآن السفر إلى

أمريكا فأنا متأكد من أنك ستنجح هناك فى أى امتحان . . وتستطيع أن تسافر خلال هذا الأسبوع . . سأسافر معك . .

* * *

ومصطفى الدسوقى جالس بجانب أبيه رضوان الدسوقى على مقاعد الدرجة الأولى فى الطائرة التى تحملهما إلى أمريكا . .

وكانت قد مرت أيام هدأت فيها نزعة الغيظ الثائر التى كانت تسيطر على كيان مصطفى . . ولكن أفكاره لا تزال تنبض بالمرارة ولا تستطيع أن تتحرر خارج الموضوع الواحد الذى تدور فيه . . موضوع أيامه مع أصدقائه الطلبة الغلابة الذين كانوا قد جدوا على حياته ونقلوه من فراغ ممل ومزهق يعيش فيه إلى دنيا زاخرة بالمسئوليات الكبرى . . مسئولية المستقبل الوطنى كله . . مسئولية حمل مصير كل الناس . . كل الشعب . . وقد هزم فى هذه الدنيا . . لا . . لم يهزم بشخصيته وبطبيعته الذاتية . . ولكنها هزيمة الكيان الذى ولد به وفيه دون أن يختاره . . كيان الأغنياء . . إنه كالرجل الوسيم الذى لا فضل له فى وسامته . . أو كالرجل القبيح الذى لا ذنب له فى قبحه . . ولكن هكذا قد ولد كل منهم . . وهو أيضا ولد هكذا . . أحد أفراد مجتمع منتهى الثراء . . دون أن يكون قد اختار لنفسه هذا المجتمع . . بل إنه لم يكن يفرق بين حاله وحال أصدقائه الغلابة . . وكان يعيش بينهم كأنه يعيش دنيا طبيعية خلقها الله وجمع فيها بين السادة الأثرياء والغلابة الخاضعين للسيادة . . دون أن يستصيع الثرى أو الغلبان الاستغناء عن الآخر . . إنها دنيا واحدة . . وقد كان متجاوبا منتهى التجاوب مع الغلابة فى هذه الدنيا . . وكان يحس أن

الغلابة أيضا متجاوبون معه . . إلى أن حدث وأفرج عنه دون الفقير الغلبان . . فلا يمكن أن يعتبر هذا حقا . . إنه سيطرة ظالمة تفرضها طبقة الأثرياء . . وهذا صحيح . . ولكن ما ذنبه هو إذا كان قد ولد هكذا . . من الأثرياء . . بل إنه هو نفسه لم يكن يتمنى أن يفرج عنه دون الغلابة . . كان يتمنى أن يبقى معهم يعانى ما يعانون إلى أن يحققوا الهدف الأكبر للحركة الوطنية . . وإن كثيرا من زعماء الحركات الوطنية كانوا من كبار الأثرياء . . بل إن زعيم الحركة الماركسية التى ترفض الثراء وتطالب بالمساواة فى الفقر يعتبر من الأثرياء . . ومن سبقه كان أيضا من الأثرياء حتى كان يسمى « الباشا الأحمر » . . أى أن الثرى يمكن أيضا أن يكون ماركسيا . . ولو أنه لم يظهر من بينهم من فرض الماركسية على البلد فعلا . . فقد كان ماركس نفسه فقيرا غلبانا . . ثم ما هو وضع أبناء زعماء الثورة الذين ماتوا ولا يزال الطلبة يهتفون باسمهم . . إنهم كلهم من أصحاب الملايين . . يبدأ الزعيم بقيادة الثورة وهو غلبان إلى أن يتملك السلطة ثم يموت وقد ترك أولاده كلهم من أصحاب الملايين . . وهو مجرد واحد من هؤلاء الأبناء وإن كان أبوه لم يكن يسعى إلى الزعامة ولا يسعى حتى اليوم إلى تحمل مسئولية القيادة الوطنية . . ولكنه ثورى من جيل الثورة . . فلماذا طرده زملاؤه الغلابة من بينهم بعد أن أفرج عنه وحده . . إنهم أغبياء . . فقد كان يعد نفسه بعد خروجه من السجن لمزيد من التطرف والمجازفة بنفسه فى الحركة الوطنية حتى يعود إلى السجن . . وكانوا يستطيعون فى هذه المرحلة أن يتمسكوا بصداقته أكثر حتى يستغلوا ملايينه فى تمويل الحركة بدلا من أن يتركوها لأبيه يستغلها وحده فى تحقيق أهدافه الشخصية . . لقد كانوا أغبياء عندما طردوه من بينهم . . كانوا ضحايا الشعارات التى ترفض الواقع دون أن تحقق

واقعا آخر . . ولكن . . من يدرى . . ربما كانوا على حق فى طرده من بينهم . . ربما لم يكونوا يخافونه . . ولكنهم يخافون أباه وهو يحاول أن يبعد ابنه عنهم . .

وتمر ابتسامة مرة على شفتى مصطفى وهو يتذكر نهى . . لقد كانت الشخصية الوحيدة التى ظهرت فى حياته حتى اليوم وتمده بهذه الراحة الكاملة . . وهذا التعلق بآمال كبيرة . . كلما التقى وجهه بوجهها . . رغم أنه ثرى وهى غلبانة . . وهو متأكد أنها كانت متعلقة به هى الأخرى . . ربما كانت تحس بنفس الراحة وتتعلق وهى بجانبه بنفس الآمال . . وإذا كانت قد بدأت تتباعد عنه بعد أن أفرج عنه فقد كان يحس بأن شوقها إليه يربطها به . . ولكنها كانت أيضا ضحية الشعارات فى تمسكها بتفانيها فى خدمة الحركة الوطنية كما يصورها لها شلة الأصدقاء . . حتى اضطرت أن تضحى بكل عواطفها عندما أصبح عليها أن تختار بين الاستسلام له أو الاستسلام لشلة الأصدقاء المجاهدين تحت ضغط إحساسها الدائم بأنه غنى ابن المليونير وهى الغلبانة ابنة غلبان وزوجة غلبان . . وقد استسلمت للغلابة وتركت جنيهاته تطير فى الهواء . . وطردته وطردت نفسها من دنياه . . ترى هل سيجد فى أمريكا فتاة توفر له كل هذه الراحة وكل هذه الآمال مما كانت توفره له نهى . . وكان والده رضوان الدسوقى لا يكف عن الكلام ولكنه لم يكن يتعمد صد أفكاره ليتتبع ما يقول . . إلى أن سمعه قائلا :

— إن أمريكا هى المستقبل . .

وانطلقت فى ذاكرة مصطفى فورا كلمات الهتاف الذى كان يهتف به الطلبة خلال المظاهرات . . « يا أمريكا لمى فلوسك . . بكره

الشعب يدوسك » . . وابتسم بينه وبين نفسه . . إنه الآن فى طريقه ليدوس أرض أمريكا بقدميه . . ولكنه لا يريد أن « تلم » أمريكا « فلوسها » . . إنه هو وأباه فى حاجة إلى فلوس أمريكا . .

والتفت بعينيه إلى وجه أبيه كأنه يبحث فيه عما يوحى به المستقبل . .

كتب الأستاذ إحسان عبد القدوس بمكتبة غريب